هالة كوثراني



الأسبوع الأخير

دار الساقي

هالة كوثراني

الأسبوع الأخير



دار الساقي


الأسبوع الأخير

تصميم الغلاف : أوريدا منيمنة

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

ISBN 1-85516-752-2

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

إلى باسل هنا وهناك

في الحلم قرعتُ الجرس. وقفت أمام الباب حائرة خجولة. ظللت واقفة برغم تعبي. لم أعرف أنني أحلم. أحياناً أطمئن نفسي خلال نومي وأقول: «بسيطة، هذا حلم». ظللتُ واقفة. كانت الشمس تطاردني. دوماً تحاربني الشمس. تعرف أنني لا أحبها. أحاول أن أسلخها عن جلدي. أمام الباب أحسّ بها في ظهري. أظلّ واقفة. تفتح لي امرأة قصيرة القامة، هي العروس، جارتي في الحلم، التي لا تغادر المنزل. «أنا جارتك وأشعر دوماً بالملل هنا. ماذا تفعلين؟»، قلتُ. ثم عرّفتها إليّ: «أحببتُ ثلاثة رجال وكرهت أنفي. أحاول أن أستعين بخصلات شعري كي أمنح نفسي مظهراً غامضاً. الكحل الأسود يساعدني أيضاً». ثم صحوتُ فجأة. تأخّرتُ. للمرة الأولى في حياتي، أصحو متأخّرة. ولأنني أحتاج إلى نهاري كله، إلى أن أتنشّقه وأمتصّه وأدوسه وأستغلّه كله، تأخرتُ.

بعد أسبوع واحد، سأطير. كيف يطير كل هذا الوقت؟ يهرب مني، فينتهي النهار من دون أن أملّه. قبل أن أقرّر الرحيل أو أن

أضطر إليه، كان النهار يوجع رأسي ويملأه أسئلة وقلقاً لا ينتهي. كنت أعيش. لم أكن يوماً حرّة، لكنني كنت أعيش. كنتُ محاطة بأصدقاء، وكنت أظن بيروت تعرف أنني أعيش فيها وتراني وتبالي بي. كنت هوجاء أيضاً. وكنت أؤجل التعب. أعرف أن الفراغ ينتظرني وأضحك عليه. أضيّعه ريثما أحصل على مزيد من الوقت قبل أن أصطدم به.

اصطدمتُ بالفراغ. وكانت بيروت تدفعني نحوه. أجّلت طويلاً اعترافي بالمؤامرة التي تشارك فيها ضدي. كنت أحبها. والوقت، الذي كنت أتّكل عليه لمساعدتي، شارك في المؤامرة. ليس سهلاً في بيروت أن أدخل عامي الثالث والثلاثين بلا رجل أو عائلة أو عمل أو حتى حلم. أحلامي أصبحت عن الغربة. عن إحدى مدن الشمس التي سأستقرّ فيها. بعد أسبوع سأجد نفسي في دبي التي سبقني إليها نصف أبناء جيلي. وبعدما كنت غريبة في بيروت، سأصبح غريبة في دبي. صديقتي ريم، التي باتت غريبة في هولندا، حدّثتني عن الغربة. «في الغربة تحبين الذين لم تحبيهم يوماً. وتعلّقين على الأشياء المحيطة بك والأشكال العادية اليومية الموجودة دوماً حولك أوراقاً ملوّنة صغيرة لاصقة تكتبين عليها عبارات تتكئ إليها الذاكرة. الساعة الرملية مثلاً، التي تلقّيتُها هدية من أخي عماد، والتي تزيّن طاولة تستلقي عليها أوراقي وكتبي، كتبتُ على ورقة ما زالت تتدلّى منها؟ «عماد... من خان الخليلي». هكذا أدافع عن ذكرياتي لأن الثقب الذي تحفره الوحدة والتعب من الأيام المتشابهة داخل رأسي يسمح بهروب ألوان الأيام الجميلة وغير الجميلة أيضاً

وأصواتها وروائحها. في الغربة تصبح ذاكرتي بيضاء. تتلوّن مشاهدها باللون الأبيض. أنسى. وأحاول أن ألحق بها، أن أمسك بمشاهدها، لكن الحياة اليومية تسبقني وتشدّني إليها، بعيداً عن البارحة وعن الأسبوع والشهر الماضيين والعام الفائت. في الغربة أيضاً تنفصل حياتي عن حياة المكان الذي أعيش فيه، وأنا أحارب كي لا أنفصل عن حياة المكان الذي كنت أعيش فيه، والذي أحسّ بأنني أنظر إليه من فوقه أو من هامشه، من زاوية بعيدة. أشعر وأنا أطوي نفسي فيه، في إحدى الزوايا، بأنني أريد أن أغيّر نفسي وأغيّر العالم. وأحتاج إلى أن أتكلّم، كي أفهم أسباب وجودي هنا. في لحظة معيّنة أحس بأنني سأنفجر إنْ لم أسأل أحداً عمّا يضطرني إلى العيش في مكان لا تربطني به علاقات قديمة وقصص بلا معنى وقصص أخرى بمعانٍ وكوارث وأفراح. أتوق إلى صوت غير صوتي. من زاوية في مكان اخترعته، مكان ليس الـ «هنا» والـ «هناك»، أكلّم نفسي ولا يسمعني أحد. أنا نفسي لا أسمع نفسي.

أن تقولي «هنا» عن مدينة غريبة و«هناك» عن مدينتك أمر يصعب اعتياده. في المرحلة الأولى من الغربة، حين تتحدّثين عن بيروت، ستقولين هنا. ستقولين، «هنا لا يحبون الانتظار»، لكنك تقصدين الكلام على بيروت.

في الغربة نموت أيضاً. نعيش لصباح ينتهي سريعاً ونحتمل أوقات الظهيرة قبل أن يأتي الانهيار مساءً حين نشتاق إلى أهلنا وشوارع تغيّرت ولم نغيّرها في الصور وفي الذاكرة وفي البطاقات البريدية المنقرضة».

طرحني حديث ريم في السرير، نمتُ عشر ساعات كي أنساه. أردت أن أصحو عازمة على المضي في تصريف أعمالي خلال أسبوعي الأخير هنا، في بيروت، بعد شهور من التردّد والإحباط.

لا أعمل. لم أعد أعمل، وعلى أي حال لم يكن راتبي يكفيني وكنت كأنني لا أعمل. لا، كنت أكره عملي. ظننتُني انتصرتُ عليه حين اعتبرتُه موقّتاً حتى انتقم مني. عملي في شركة توثيق المعلومات في الكرنتينا احتقرته واحتقرني إلى أن بصقتُ عليه بسعادة. تركته وأنا أقنع نفسي بأنني، بتركه قبل أن يتركني، أنتقم منه لدموعي التي كنت أحبسها متى ذكّرتُ المدير السمين والقبيح براتبي. شتمتُه، في قلبي طبعاً. وسلّمتُ إليه مفاتيح الأدراج والأقلام المعلِّمة التي ألوّن بها الكلمات والسطور قبل أن أحفظها في ذاكرة جهاز الكومبيوتر. وكنت أتحمّل كل يوم، وأنا أختار من الصحف المقاطع التي سألقّمها للعلبة البلاستيكية والزجاجية التي فرضتْ نفسها عليّ، ذنب كلمات أتخلّى عنها. أعدّ الكلمات والسطور في الصحف وما زلت أعدّها، وأعدّ أيضاً الكلمات في صفحات أي كتاب تعثر عليه يداي. ثم أصبحت أعدّ طبقات البنايات البيروتية، بنايات الفقراء، التي أقرف منها، وبنايات الأغنياء التي أقرف منها أيضاً. دفنت نفسي في مكتب الأستاذ السمين طوال عام كامل كي لا أظلّ عاطلة من العمل. منذ اليوم الأول وفي الثامنة صباحاً حين وصلت إلى مبنى الشركة في الكرنتينا، خفت من الرائحة التي تحاصره. وما تسرّب القرف إليّ على مهل وما حملَتْه لي الأيام ببطء بل صفعتني الرائحة وقدّمته إليّ منذ اليوم الأول لكنني صبرت. كي أهرب من أمي وكلامها

وصبرت. كي لا تتعفّن معرفتي وكي لا أهين شهادتي صبرت ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً. صبرت أيضاً كي أخفّف مللي ولم يخفّ. فتركت للمدير رائحة الموت العتيق والغاز والنفايات وعدت إلى غرفتي التي وطدتُ علاقتي بها واخترتها مركبتي الفضائية.

لا أعمل ولم أتزوج بعد، والآن لا أحب أحداً، أقصد رجلاً. أحب ثلاثة رجال شغلوا الأعوام العشرة الأخيرة من عمري، لكنني الآن من دون «صديق».

«صديق» كلمة تخافها أمي التي تخاف أيضاً عليّ. الوقت يسرع وعليّ أن أنجب ولداً. «ألا تريدين أن تصبحي أماً؟»، تسألني كل يوم.

أعيش وحدي مع والديّ منذ تزوجت أختي وسافرت إلى كندا. كنت أحارب حزنهما على بيروت، هذا الحزن الذي يكاد يقتلهما. كنت أحارب أيضاً علاقتهما الغريبة بالشقة التي نسكنها، حبهما جدرانها وأرضها وأبوابها. لا يكاد والداي يغادران الشقة. لا يحبان بيروت الجديدة التي بَنَتْها الحرب بعدما هدمت مدينتهما، ولا يعرفان التنقّل بين شوارعها وأزقّتها، ولا يستطيعان التعرّف على أصواتها وروائحها، لذا لا يخرجان إلاّ نادراً.

قبل أن أتعب من شارع «الاستقلال» البيروتي، ومن حياتي فيه، ومن أعوامي الثلاثة والثلاثين، كنت لا أزال واعية وكنت أحسّ. كنت أتضايق من وجودهما الدائم في البيت، وأحياناً أشفق عليهما. حاولت أن أنصحهما بالاعتراف بأنهما يعيشان في بيروت نفسها،

وإن رأياها مختلفة عن بيروت التي عرفاها. «لكننا ما زلنا في بيروت وفي المنطقة نفسها والشارع نفسه... ولو يا ماما». لم يغيّرا في البيت أي شيء. لكن «شكل الدنيا حولهما تغيّر»، تجيبني أمي بصوت مرتفع. أشكال الشوارع في بيروت تغيّرت قليلاً، لكن الحماسة للحياة التي سادت خلال الحرب وفجّرها الموت القريب، انطفأت. والداي يريدان السلام والحماسة معاً ويريدان أن يظلّ شكل بيروت كما عرفاها قبل الحرب. كأن الحرب جمّدتهما وجمّدت الحياة من حولهما، ثم كُبس زرّ أعادهما إلى الحياة التي أرادا استئنافها من حيث تركاها في نيسان/ أبريل ١٩٧٥. فكّرتُ في أن أشتري مكبّراً للصوت وأصرخ في آذانهما بأن الحياة تغيّرت، بأن الحياة تتغيّر من حولهما، وبأن حياتي معهما في شارع الاستقلال بائسة وتعذّبني. حاولت أن أدلّهما، في منطقة وسط بيروت الجديدة، التي لا يعرفانها، على مطاعم يستطيعان زيارتها، وأن أنقل لهما علاقتي الوثيقة بالمدينة الجديدة وهي تستعيد جمالها وتفقد عافيتها. كان ذلك قبل اليأس، قبل أن أكتشف أنني بدأت أفقد شيئاً من حبي لبيروت التي ولدت فيها. وقبل مرور الوقت وقبل أن أكبر فجأة وأصبح فجأة وبسرعة، غير مستقرّة، كأنني أعيش مرحلة موقّتة من حياتي، مرحلة لا تنتهي. فجأة وجدت نفسي كأن عليّ أن أنتظر حدوث أمر ما، كأن عليّ أن أنتظر الزوج والأولاد أو الوظيفة والمال اللذين قد يعوّضانني عن غياب الرجل والأولاد. ثم أصبحت لا أبالي بتصرفات والديّ ولا أبالي بوجودهما في البيت. وأصبحت لا أبالي بالبيت نفسه. أدخله وأغادره من دون أن يتغيّر وجهي. صرت

دائماً في حالة انتظار، انتظار الجرأة التي ستحملني إلى دبي حيث وجدت عملاً، أو انتظار معجزة تبقيني في بيروت. برغم يأسي وسوداويتي، كنت أنتظر معجزة. ولم أقل يوماً لنفسي في جملة واضحة إنني «أفضّل أن أبقى هنا في بيروت». كنت دوماً أدّعي أنني أستطيع الرحيل.

أضحك على نفسي وأحتال عليها. أتحمّس للسفر خلال لحظات قصيرة، لحظات أسعى إلى التقاطها خلال يومي، حين يبدأ، ولا أستطيع. أدّعي أنني متحمسة. أدّعي أنني أريد أن أعيش في مكان لا أحسّ به، في مركبة فضائية مثلاً، في مكان لا أحسّ به وإن أحسّ بي. بيروت صرت أشعر بأنها لم تكن تحسّ بي منذ وُجدت فيها، إلا أنني اكتشفت هذه الحقيقة أخيراً. صرت أختنق. كلّهم سافروا. كل الذين كان يومي يزدحم بهم سافروا. كل الذين أمي تقول إنني أضيّع وقتي معهم وإنني بسببهم سأكتشف فجأة وحدتي في الأربعين. تختار دوماً الاربعين لإقناعي بضرورة أن أهتمّ بحياتي على طريقتها. كان صبرهم أقلّ من صبري. قبل الأربعين لم أجدهم، وقبل الأربعين دهمتني الوحدة. وحدة صرت أقبل بها وأختارها بعدما كنت أهرب منها.

صرت أحسّ بأنني اختنق في الطريق بين شارع الاستقلال وشارع الحمرا، أو بين شارع فردان وشارع الاستقلال، أو في زحمة السير في شارع مار الياس وصولاً إلى شارع الاستقلال، وبعدما كنت أحبّ الناس وأقول دوماً إنني أموت إن أُدخلت سجناً، صرت أسجن نفسي في غرفتي. لا بد أنهم أقوى مني هؤلاء الذين غادروا

بيروت بحثاً عن حياتهم بدلاً من أن يبحثوا عن حياتهم فيها. حتى ريم التي أحوالها تشبه أحوالي وأهلها يشبهون أهلي، والتي لم تنسَ أيضاً ما عانيناه، أنا وهي، في مدرسة الراهبات، أثبتت لي أنها الأقوى ولم تخف البقاء في هولندا. في المدرسة كنت أدّعي حمايتها حين كانت دوماً تحسّ بالخوف من عتمة صف الموسيقى وبرودته، ومن الأساتذة والعلامات والقصف وخبث بعض الفتيات. كنت دوماً أهدّئها وأشرح لها أننا بخير. اتصلت بها قبل أسبوع من سفري كي أسمع منها أنني سأكون بخير هناك، في دبي، وكي تحكي لي كيف أصبح العام الدراسي في هولندا أعواماً طويلة ثم فرصة العمل فرصة للبقاء هناك. «أحبّ أن أعود، لكن أظنني لن أعود». قالت ريم.

أنا أيضاً أحسّ بأنني لن أعود. إذا ذهبت، فلن أعود. سيكون صعباً عليّ أن أكتفي بزيارة الشوارع التي كنت أتصارع معها كل صباح، ألومها وأهدّدها برحيلي، أقبّلها من وراء زجاج السيارة، ألامسها وألاطفها وأحسد الذين لا يتعبهم حبها ويتذمّرون منها حتى ينسوا سبب تذمّرهم. منذ عامين أفكّر في السفر. من قبل أن يذهبوا كلّهم، أنتظر. فبرغم غضبي الذي يظهر على وجهي يومياً، لا أصدّق أن الانهيار لا يتبعه أمل، ولا أصدّق أن الظلم لا ينتهي، وأن الملل لا حلّ له. برغم غضبي، أعتبر نفسي متفائلة ومحاربة. لذا، رأيت في أسبوعي الأخير في بيروت أنني يجب أن أتصالح والوجوه التي بقيت لي هنا، وجوه أصررت على أن أورّطها في حياتي كي تكون لي حياة في المدينة التي قررت أن أودّعها بشجاعة. قررت وبدأت التنفيذ محاربةً إحساسي بالغيظ. أستطيع خلال هذا الأسبوع

أن أتظاهر بأنني أعيش قصّة حب أو حتى قصتين. أستطيع أيضاً أن أتجاهل حقدي على بيروت وأودّعها بشهامة واحترام وأدب.

عليّ أولاً أن أتصل بوليد الذي وعدني بأن يدبّر لي موعداً مع صديقه الرسّام. فبعدما جررتُ نفسي إلى حفلة وداع مي ورمزي، التي اختتما بها الاحتفالات بزواجهما، وفي عزّ الحفلة، فرحتُ بالتعرّف إلى الرسّام لأسباب عدة، أولها أنني بدأت أحسّ بالندم على مجيئي إلى الحفلة لمشاركتي مي ورمزي في أفراحهما التي لا تنتهي، ثم إن وجوده محا إحساسي بالندم الذي يتعبني إلى مدى بعيد. والرسّام انتبه لي قبل أن أنتبه له، وابتسم لي أيضاً، فأعطاني جرعة من الثقة وأضاء ليلي البيروتي. قال لي، بعدما عرّفني وليد عليه إنني أذكّره بالممثلة الأميركية كاميرون دياز... أحتاج الآن إلى أن أعرف شخصاً يظنني أشبه كاميرون. لكن هل ألوم هواء بيروت أيضاً على غياب اللون عن وجهي وعلى الهالات السود حول عينيّ؟ لا أستطيع في بيروت ألاّ أبالي بلون وجهي وبالهالات السود حول عينيّ. وفي هذا المستوى من العلاقة بيني وبين جسمي تنفجر فيّ عقد وتناقضات. هنا يبدأ الإحساس بالحرية، الذي لم أجده بعد، يختنق. وتبدأ فكرتي عن هذا الإحساس تختنق. يختنق الإحساس نفسه قبل أن أجده. برغم أنني في مواقف عدة، مواقف أعيشها كل يوم، أحسّ بأنني وجدته، أحسّ بأنني حرّة، لكنني أفقده سريعاً. في الحقيقة، لم أكن يوماً حرّة. ولم أستطع يوماً أن أتحرّر من عقد تحدّد لي شكل جسمي الذي يجب أن أسعى إلى الحصول عليه. لم أستطيع أن أمتلك جسمي برغم محاولاتي

المتكرّرة التعامل معه بحجة أنه لي وحدي. فهل ألوم بيروت وحدها على ضعفي؟

يجب أن ألومها على الحيرة التي لا تفارقني بسبب إحساسي بأنني مضطرة إلى مغادرتها برغم أنني لا أحب مغادرتها، وعلى الجوع إلى الاستقرار. ففي الثالثة والثلاثين يصعب تجاهل حاجة غريبة تنمو فيّ إلى الركون، إلى وضع واحد وإلى لقب واحد وحياة واحدة واسم واحد. فأحار بين فهم حاجتي وتلبيتها والسعي إلى تلبيتها، أو بين الاعتراف بعجزي عن تلبيتها هنا في بيروت. ولا أقول إنني ألوم المدينة على عجزي، لكنني أحمّلها جزءاً من المسؤولية وجزءاً من اللوم. وأنجرّ إلى الطائرة، غصباً عني أنجرّ إليها، خصوصاً أنها تفتح لي بابها الذي عرفه كثيرون قبلي. أنجرّ إلى الطائرة التي ربما أخذتني إلى حيث أستطيع أن أقلّص حيرتي وعجزي. فمنذ كبرت في بيروت، أصارع الحيرة. أحار في النهار سبعين مرة. وكنت أحار بين الخروج مع وسيم، خطيبي السابق، هرباً من الملل، ومواجهة الملل والصمود أمام الوحدة... وسيم لم أرَه منذ أربعة أعوام. وقد نسيت شكل وجهه ولم أنسَ يديه المنتفختين، اللتين كانتا تبحثان دائماً عن يديّ حين يختفي الآخرون. لم أنسَهما لأنني كنت أحدّق إليهما طويلاً. كنت أنتظر أن تعانقا يديّ. وكان وسيم يخجل من أن يمسك بيديّ ليس لأنه يخجل مني، أو بي بل لأنه يريد أن يثبت للآخرين أنه لا يحتاج إليّ أو إلى أية فتاة غيري، وأنه في أية لحظة يستطيع الاستغناء عني. طفلاً كان وسيم، ولم أكن يوماً طفلة.

كان وسيم أقصر مني. هذه الحقيقة الظاهرة كانت تضايقه. ويوم خِطبتنا العاصف، يوم طارت أشرطة الكهرباء واقتلع الهواء الأشجار اليتيمة الضعيفة على الرصيف قبالة بيتنا، كنا نعرف أننا نلعب. وكأن الطقس كان يقنعنا بضرورة أن نتوقف عن اللعب. أمي فرحت بلعبة الخطبة. فهي تريدني أن أتزوّج منذ ولدتني. وأمي تريد أن تستريح من البحث عن عريس منذ انتهيتُ من الدراسة عند الراهبات وقبل أن أدخل الجامعة. لكنني فاجأتها. حين أتيتها بوسيم، فاجأتها. ربما أحسّت بأنني ألعب. لكنها أرادت أن تشارك معي في اللعبة وأن تنتظر معي نهايتها. أرادت أن تحلم بأن هذه اللعبة لن تنتهي بل ستخلّصها من همّي. اشترينا خاتمين، «محبسين»، واهتممنا بشكلهما ولونهما واخترناهما على مهل بعدما زرنا معظم صاغة المدينة. كنا نحترم اللعبة ونشارك فيها «على الأصول». ولأننا نلعب انتظرنا أن يتغيّر أمر ما، أن يتغيّر وحده. أن نكبر فجأة، أو أن نعثر على كنز، أو أن نفقد ذاكرتينا وندخل في غيبوبة. أزعجتنا اللعبة من دون أن يعترف كلّ منا للآخر بانزعاجه. أزعجتنا اللعبة، لكن فكرة أن نلعب وأن ننجح في الاستمرار في اللعب، أغرتنا بانتظار النهاية التي عرفنا أنها ستأتي وحدها. وددت أن أغيب عن الوعي حين أتاني وسيم بالحلّ من دون أن يعرف أنني سأفرح به. أردت أن أغيب عن الوعي بسبب سعادتي حين كشف لي أنه وجد الحلّ هناك في الخارج، هناك في الغربة. «الحلّ دوماً يأتي من برّا»، قلتُ له وشجّعته على السفر. ولم أفكر يوماً في أنني سأخرج إلى «برّا» وحدي، من دونه هو ومن دون أمي وأبي ومن دون بيروت التي

سأحاول أن أحشرها في حقيبة واسعة اشتريتها فخمة كبيرة الحجم كي تتّسع لأيامي كلّها.

لن أطلب من وليد على نحو مباشر أن يدبّر لي موعداً مع صديقه الرسّام. لن أتصل به وأسأله عن رقم صديقه كي أتصل أنا به. سألتقيه في المقهى حيث سأسأله عن صديقه، ثم أطلب منه أن يتصل به على هاتفه النقال. أحتاج إلى قليل من الثقة قبل أن أغادر. لست مغرمة بالرسّام، أريد أن أقع في غرام نفسي فحسب. أريد أيضاً أن أكره أسبوعي الأخير في بيروت. أريد أن يزداد غضبي منها حتى لا أرتمي في أحضان لحظات حميمة تجمعني بها كليلة احتفلت معها وحدي، في شرفة بيتنا في شارع الاستقلال، برغبتي الأولى في أن أفارقها.

لا أخجل من وليد. أعرفه منذ أعوام طويلة، منذ كنا في الجامعة. كنت أخجل من قمصانه الملوّنة، لكنني اعتدت العيون المحدّقة إليه، والتي تحكي عنه حكايات متخيّلة ومضحكة.

«نلتقي في الخامسة»، قلتُ له حين ردّ على اتصالي الهاتفي. «لا تأكل، سنأكل معاً... أستطيع أن أدلّل نفسي في أسبوعي الأخير في بيروت».

في المقهى، الأرض ليست رخامية، لكنها جميلة. تشبه الأرض في المقهى أرض مدرستي. ألوانها مزيج من البنّي والأبيض والقرميدي. لكنني في المقهى أحسّ بالدفء. وكنت في مدرستي دوماً أحسّ بالبرد. الكراسي أيضاً مثل المقاعد في الصفوف،

مصنوعة من الخشب البني، لكنها أجمل طبعاً وجديدة أيضاً. وأستطيع إذا جلست على أحدها أن أنهض عنه لحظة أشاء. في المدرسة كنت أشعر بأنني ملتصقة بالمقعد. المقهى الذي اخترت العيش فيه تقريباً، يذكّرني بمدرستي التي حاولت مرات عدة الهروب منها. ثم أعادتني إليها القيود نفسها التي تعيدني كل ليلة إلى البيت في شارع الاستقلال. صوت أمي وحده قيد أصارع منذ ثلاثين عاماً كي أكسره.

في المقهى، جلست ورأسي متكّئ إلى الزجاج. ينقصني المطر كي أطير. لا أريد أن أفكّر في الطيران أو الطائرات الآن. الشارع، الذي أنظر إليه بحب، هادئ، ولا أحسّ بالخجل. «أين صديقك الرسّام؟» سألتُ.

مهمّة أخرى فشلت في إنجازها. سمّيتها مهمّات لا رغبات، لأنني لا أرغب في كل ما أقوم به، ولأنني أريد أن أصحو على أسبوع مختلف فحسب، أسبوع أخير مختلف. ومهمّاتي عاطفية ترتبط بحاجتي إلى أن أنسج مواقف دراماتيكية أحملها معي حيثما أذهب. ولأنني هذه المرة ذاهبة بعيداً، أتوق إلى مواقف غنية في دراماتيكيتها. لكنني لم أرَ الرسّام، لم أجده.

مشيت من المقهى في شارع كليمنصو إلى مدرستي في زقاق البلاط من دون أن أفكر. ابتسمتُ حين وجدت نفسي لدى باب المدرسة، ثم أكملت طريقي نحو بيتنا في شارع الاستقلال الذي أستطيع أن أصل إليه من دون أن أقطع زقاق البلاط، لكنني مشيت ولم أفكّر.

تركت وليد الذي يريد أن يصبغ لي شعري باللون الأصفر، «غولدن» قال، وقد تغيّر مزاجي. أخجل من وليد حين يحاول أن يتدخل في نشاطاتي «النسائية» التي في العادة يكره الرجال أن يعرفوا شيئاً عنها. وأخجل حين أُبعده بلطف عن تفاصيل العناية بأظفاري وشعري وحاجبيّ، تفاصيل تبرق عيناه عند سماعها، كما تبرقان حين يسألني: «إلى متى ستتركين هذا اللون على أظفارك؟». لماذا يحبّ وليد أن يتحمّل هذا العبء الثقيل الذي لا أستطيع الفكاك منه؟ فليس سهلاً أن أستطيع الحفاظ دوماً على أظفار مقلّمة وشعر مصفّف وحاجبين مخطّطين وشاربين منتوفين. أفكر دوماً لو أنني ولدت في استوكهولم لما اضطررت إلى هذا كله، إلى اختيار نوع الشمع الذي سأقتلع به الشعيرات النامية فوق جسمي. المنافسة في بيروت حقاً متعبة، فلا أستطيع أن أهرب من دائرتها لأنني أريد أن أحصل على رجل. والرجال في المدينة يستطيعون التفرّج على عروض يومية تضمّ ألواناً وأزياءً مطبوعة عليها أسماء ماركات عالمية، وشفاهاً ممتلئة وعيوناً ملوّنة ووجنات مورّدة وأفخاذاً مدلّلة.

كلّما وصلت إلى بيت أهلي، إلى الفسحة التي أركن فيها السيارة، أجدُني أنظر إلى شرفة الطبقة الرابعة. أحاول أن أحارب نفسي وألاّ أنظر وأن أركّز نظري في صراعي مع السيارات المتوقّفة. كلّما دخلتُ الكاراج انتصرت السيارات عليّ. أغار منها لأنها تقف مستريحة، وأشتمها لأنها تمنعني من الوصول إلى غرفتي. أرى في بيت أهلي غرفتي فقط. ولا أهتمّ بسائر أجزائه، بزواياه التي عرفتها منذ شهوري الأولى في الحياة. حمتنا زواياه من الموت. أما

مدخله، فلم تقع جدرانه علينا، برغم اهتزازها على وقع المدافع والقنابل. لكنني لا أحسّ بأنني مضطرة إلى أن أكون وفيّة للمدخل ولا للجدران ولا لغرفة الاستقبال ولا لغرفة التلفزيون، التي لا يغادرها والداي، ولا حتى للحمامات برغم حاجتنا الماسة إليها. حتى شرفات بيت أهلي لا تهمّني، لكنني صرت أهتمّ بالشرفة الكبيرة في الطبقة الرابعة حيث يسكن أهل ليلى.

حين كنت ألتقي ليلى في المصعد مرتين أو ثلاثاً يومياً وأسلّم عليها باسمة ضاحكة أحياناً، كنت أحسّ بأنها تفهم عليّ وبأنني أفهم عليها. نتفق كل مرة على أن نلتقي في المقهى في آخر الشارع ثم لا نلتقي. برغم أنني لا أفعل شيئاً معظم النهار. ليلى كانت في الثلاثين. قالت لي إنها في الثلاثين حين التقيتها في حفلة العشاء في الجبل. أحسست بأنها فوجئت برؤيتي ثم استراحت. كان العشب الأخضر يئنّ تحت دعساتنا وأنوار الشموع ترتجف خوفاً من أصوات المدعوّين. لم يكن صراخ الموسيقى قد بدأ. لم تكن قد جُنّت بعد. كانت ليلى تائهة بين الأسنان البيض والصفر وروائح الرذاذ المثبّت للشعر وعطور الموسم. جلسنا على حجرين كبيرين يعلنان بدء الدرجات المؤدّية إلى المنزل، إلى داخله. جلسنا على «حجرين للزينة»، كما قال أحد الشبان الأنيقين. فهمتُ أنها صديقة يوسف، صديق الداعي إلى الحفلة. يوسف الذي سمعتُ عن ثرائه وغباوته الكثير، والذي، برغم ما سمعتُه، تنجح أخباره دوماً في أن تجذب انتباهي وتلهب رغبتي في أن أكون جزءاً من هذا العالم البرّاق والفارغ. فارغ لأسباب لم أستطع أن أفسّرها. فكلّهم، يوسف

وأصدقاؤه ومن بينهم صديقه الداعي الذي عرّفني إليه وليد، درسوا في أحسن مدارس المدينة وأشهرها، وفي بيوت أهلهم مكتبات تستطيع كتبها أن تدفنني وتدفن غرفتي بالرفوف المعلّقة بجدرانها والتي أودعتها كتبي الأغلى على قلبي. كذلك يستطيعون السفر إلى مدن كثيراً ما حَلمتُ بالسفر إليها. أعرف أنهم فارغون لأنهم يريدون أن يكونوا فارغين، ويزاداد إعجابي بهم ورهبتي حين ألتقي أحدهم. في الحفلة كنت مثل ليلى، غير مصدّقة أنني هناك، أنني واحدة منهم. وكنت أتفرّج عليهم بدهشة وحماسة. أما ليلى التي كان عليها أن تكون واحدة منهم، فلم تكن تعرف أن تنسجم مع أصدقاء يوسف الذين لا يتركونه البتة. في الحفلة، جلستُ معها وكانت تراقبه بشغف، تحاول أن تفهم عليه قبل أن يتكلّم وتشرح لي أسباب تصرّفاته الغريبة كأنني جئتهم من كوكب آخر. وتبتسم حين تتحدّث عنه برغم خجلها مما تقوله. فتحت ليلى لي قلبها تلك الليلة. على الأقلّ هذا ما أحسستُ به. وصرنا، أنا وليلى، نمشي على كورنيش البحر في بيروت. نمشي ولا نرى المشاة حولنا أو البحر الصامت برغم ثرثراتنا. ولا تزعجنا أبواق السيارات وروائحها وقلّة أدب سائقيها أو أشكال البنايات الطويلة التي تحجب البحر عن البيروتيين وتحتكر منظره لسكّانها. نمشي صباحاً ونشرب عصير البرتقال. وصارت كل مرة تحكي لي عنها، حكت لي قصة والديها «كي أستطيع أن أفهم قصتها»، بحسبما قالت.

لا أراها في المصعد ولا تحت السلالم، بين الرابع والسابع طبقتان، لكني منعت نفسي من تخيّلها قبالتي، ترفع شعرها إلى

الوراء وتحاول أن تمشي بالكعب العالي. استعجلت المصعد، قلت له «يلاّ». أردت أن أصل إلى غرفتي.

«ماشي الحال» أجبتُ صديقة أمي التي تعيش في لندن حين اتصلت صباحاً لتسأل عنها، فسألتني السؤال نفسه «ألم تفكري في الزواج بعد؟»... لم أقل لها إن الزواج لم يفكر فيّ بعد، أجبتها بأنني مشغولة بتأمين طعامي وملابسي وأنني قريباً سأغادر بيروت.

لم أغيّر رأيي بعد. في اليوم الثاني من أسبوعي الأخير في بيروت ما زلت مصرّة على السفر. أحارب رغبتي في البقاء في الغرفة وأحاول أن أنفّذ البرنامج الذي رسمتُه لأسبوعي الأخير. المقهى الذي اكتشفتُ العيش فيه قبل أن يصل اليأس إليّ، ينجح دوماً في أن يطفئ حيرتي مما أستطيع أن أصنعه بوقتي. وحين أغضب من كل شيء، من كسلي ومن بيروت، التي أخاف ألا أعود أستمتع بها، وحتى من غرفتي، أذهب إليه.

من أجل الصبح الذي أفضّله على بقية أوقات النهار، هدأتُ. عرفتُ أن أهدأ. انتظرت سيارة الأجرة تحت المطر حين قرّرت أن أترك البيت وأترك سيارتي في الكاراج. سيربكني اجتياز المستنقعات في شوارع بيروت العتيقة ولن أجد مكاناً أركنها فيه. لن أختبئ في الغرفة وأستمع خائفة إلى أصوات المطر التي تقتحمها من الخارج، ولن أدخّن كما كنت أفعل أيام المراهقة لأخفّف غضبي وأعبّر عنه. أصبحت أكره السجائر ورائحتها حين تملأ شعري وقمصاني الواسعة. عدتُ لا أرتدي قمصاناً ضيقة أو تنانير. أحاول أن أشعر بالحرية، أن أصنع لحظة إحساس بالحرية وبالتخلُّص مما تعلّمته من

بيروت. بدأت بمحاولة التخلّص من حاجتي إلى نظرات المارة في الشوارع، مجهولين لا أعرف عنهم شيئاً، لكنني كنت أتوق إلى ابتساماتهم الهائمة وقلّة أدبهم.

كلّما أمطرت تذكرتُ يوم سافر وسيم. ذلك اليوم الرمادي، أحبّه الآن برغم مأسويته. يومذاك مشيت في الشارع القريب من بيته في منطقة الصنائع في بيروت تحت المطر. طلبت من سائق سيارة الأجرة أن ينزلني في أول الشارع المؤدّي إلى بيته كي أمشي تحت المطر. لم أبك في سيارة الأجرة في يوم ماطر ينتظرني أن أودّع حبيبي، كما أردت دوماً أن أفعل كأنني طالعة من فيلم سينمائي. كان عليّ أن أبدأ من جديد. كنت سعيدة بالتخلّص من وسيم. خلّصتني بيروت منه حين أوحت له أن حياته تبدأ خارجها، ثم دلّته على باب الطائرة. كنت أريد أن أبدأ من جديد من دون وسيم. كنت أظنني أستطيع أن أبدأ من جديد وحدي. وبعد أربعة أعوام من سفره، في المقهى، قبل خمسة أيام من سفري، ودّعتُ وسيم، أحزنني غيابه بعد كل هذه المدة مع أنني في لحظات عدة أنسى أنه كان موجوداً في حياتي.

في زاوية أحبها في مقهى «مونتي كارلو» في بيروت التي أودّعها وأدّعي أنني أودّعها بسعادة، جلستُ قبل خمسة أيام من سفري. بقي لي خمسة أيام فقط وأنا أفكر في مَن بقي لي هنا كي أحزن على فراقهم.

فكّرتُ طويلاً، فكّرتُ حتى ابتسمتُ وعيناي تدمعان. ثم دخلتْ مي ورأتني غارقة في زاويتي التي ألجأ إليها هرباً من زحمة الشوارع

وضجّتها الفارغة. لم أعتد أن أشرح لها أحاسيسي أو أجيبها عن أسئلتها «ما الذي يجري؟» أو «ما بك؟» أو «ما الذي يشغل بالك؟». إلا مي، كنت أتوقّف عند وجهها المشغول دوماً بحياة لا أعرف اقتحامها. مشغولة مي دوماً بتنظيم حفلات وندوات شعرية لشعراء لم تقرأ لهم في حياتها. تريد مي دوماً أن تلفّها الضجة وأن تحيط بها أصوات. أتخيّلها دوماً مستعجلة. أراها دوماً متجهة لحضور اجتماع أو محاضرة أو ندوة كثيراً ما تنام خلالها، تنام من دون أن تغمض عينيها، هي أخبرتني عن تفنّنها في اختبار تقنيات للغياب وسط المجموعة من دون أن تظهر عليها آثاره. مبدعة مي في ابتكار أساليب التمسّك بالحياة في بيروت من دون التمسّك ببيروت. ولو كانت بيروت نفسها تعني لها ما تعنيه لي، ولو كانت تحبّها بقدر ما أحبّها أنا لما استطاعت الكذب على نفسها وعلى الحياة فيها. تساعد مي قدرتها على الكلام واستعدادها الدائم لأن تحوك الكلمات وترتديها. تصنعها بسرعة رهيبة وتقذفني بها لأتلقّفها بدهشة، وغالباً لا أستطيع تلقّفها. هكذا تدهش مي الأقوياء في المدينة. هكذا تجد نفسها دوماً في قلب الزحمة. تجد نفسها تحيا كما تريد أن تحيا. لا أرتاح لمي. وأعرف أنها تحاول أحياناً أن تبرّر لي جهلها الذي تدّعيه، كي أرتاح لها، كي أطمئنّ إليها. وتحاول أن تخفي قدرتها على الفهم والتعمّق في فهم الأحداث والمواقف وثقافتها، التي صنعتها لها الزحمة، فقط كي أرتاح لها. وحدها مي تهتمّ الآن بصداقتي وتحرص على أن نظلّ صديقتين. وأنا أعتبرها مجرّد صديقة، لكنني لم أحزن أمامها بعد. فرحتْ مي بحزني الذي يظهر

تأثيره في وجهي، ربما لأنها عثرت أخيراً على فرصة تسمح لها باقتحامي، وإن كانت فرصة أخيرة. وكان عليّ أن أكون لطيفة معها، فبرغم غيرتي منها، أستلطفُها وأقدّرُ لها رغبتها في تقليص حيرتي وضياعي. اتفقنا على اللقاء كي تعطيني عناوين أصدقائها الذين سبقوني إلى دبي. أعادت لي أيضاً كتباً استعارتها مني ولم تقرأها. لم نتحدّث عن دموعي التي أرجعتُها سريعاً إلى عينيّ. ثم ابتسمتُ بأسىً كي لا أبالغ في التمثيل، وركّزتُ نظري على الطاولة كأنني أطلب من مي أن نبدأ من جديد، أن نبدأ حديثاً جديداً. كلما التقينا ذكّرتني مي بمشروعي القديم، مشروعي الحلم، مشروع المقهى ـ المكتبة الذي كنت أخطّط لتنفيذه قبل أعوام، وكنت أخبرها عنه وأعدها بأن تكون شريكة فيه «ستجذبين الزبائن، هكذا تساعدينني». لم نكن نخطّط لمشاريع وهمية، كنا نحتاج إلى أن نوهم أنفسنا بأننا نستطيع أن نبدع أحلاماً ليست في الوقت نفسه مستحيلة. هذه الأحلام غير المستحيلة كانت للحظات تحرّرني، لثوان فحسب. لا أعرف لِمَ اتفقت مع مي على أن نلتقي. أعرف أنني لن أشتاق إليها في غربتي. وربما كنت فقط أضيّع الوقت وأبدّد نشاطي وحماستي للسفر، التي كي أتخيّلها، أغمض عينيّ، فلا أرى نفسي هنا. شعر مي الطويل يكاد يقززني. طويل جداً شعرها، حاولت أن أمسك به، أن أشدّ خصلاته أكثر من مرة، لكنني خجلت من رغبتي الشريرة في أن أسمع وجعها. وصلت مي إلى المقهى حاملة أيضاً أوراقاً قالت إنني أحتاج إليها. لم أخبرها طبعاً عن مشروعي الجديد، عن الكتابة التي أريدها أن تحلّ محلّ بيروت. تشبه مي راقصة إسبانية مصنوعة

من شمع. أودّ أن أقرصها كي تصدر منها موسيقى قبل أن تبدأ الرقص. مي دمية باهتة، واليوم تبدو باهتة كما لم أرها يوماً. لم أسالها من قبل لِمَ ترتدي التنانير القصيرة وتلصق بكتفها حقيبة يد ضخمة. لم أسألها عن رمزي أيضاً الذي لحقتْ به إلى باريس حين قرّرت أنها تريد أن تتزوج. كان لطيفاً جداً أيام الجامعة. كان يمشي وراءها كل الوقت. ينظر إليها بحبّ ويبتسم لشفتيها بحنان. كان نبيلاً ويعرف اختيار كلماته. كان أيضاً قليل الكلام ويحلم دائماً بباريس. ومي تريد كلّ الوقت أن تكون النجمة. تريد أن تبتسم لكريم وسعيد وسليم ومرهج وللشبان كلّهم. تريد أن تطير بتنانيرها الحريرية، لكن كعبها العالي يشدّها نزولاً نحو الأرض. ورمزي «كان مستعداً لتحمّل غنجها»، قال مرة، ثم اختفى. وظلّت مي فراشة لا تحطّ في مكان واحد. وحين قررت الزواج من دون أن تخبرنا طبعاً، زارت مي باريس. وازدادت غيرتي منها. لو أخبرتُ أمي بما فعلته مي، لقالت «شرعوبة قوية» لتصفَها. «شرعوبة» قلتُ لنفسي، وكتمتُ الوصف داخلي. قوية مي والدليل على قوتها أنها تعرف التعامل مع الحياة في بيروت. وأنا عدت لا أعرف أن أعيش فيها.

لكن حماسة مي لمساعدتي الآن أثّرت فيّ قليلاً. تفهم أنني أسافر كي أقدر على أن أعيش. ففي بيروت التي أعيش فيها منذ ولدت، توقّفتْ حياتي، جمدتْ وتوقّفت الحركة فيها،والأوجاع التي سبّبها لبيروت جيل أبي خلال الحرب وبعدها، أعانيها أنا.

«الحياة من دوني أقلّ وجعاً، صدقيني»، قلت لمي قبل أن

أودّعها. ما فكرت فيه خلال جلستنا، لم أقله لها، وفكرت في أن أكتبه في روايتي التي سأحارب نفسي من أجل ولادتها. قلّلتُ كلامي مع مي. لم ألمها على مظهرها الذي يوحي أنها تبحث عن معرفة تأثير الفلك على يومها وتستمع إلى أغاني عارضات الأزياء. لست أفضل من مي ولا أقوى منها ولا أشدّ قدرة على التمسك بشكلي من دون أن أضطر إلى أن أضفي عليه التعديلات. لم أكن يوماً حرّة. وأعرف أنني لا أستطيع الهروب من جسمي، سجني الذي بنيته لأنني أعيش في مدينة مثل بيروت. لم تبنه المدينة لي. اقتنعتُ بأنها بريئة من أوجاعه وأوجاعي، لكنها تسكنني وأنا أسكن جسمي، أسجنها في جسمي حين تسجنني. وأحياناً نصبح واحداً، سجناً واحداً أو شخصاً واحداً، شخصاً يبحث عن الحرية. قبّلتُ مي. لم أشكرها، لكنني قبّلتُها، وعدتها بأن أرسل لها «إيميلات» و«إس. إم. إس»، وعدتني أيضاً بأن تزورني. ادّعيتُ الفرحة بفكرة أن تزورني، كدت أصفّق لها ثم هدأتُ.

في المقهى شاشة عملاقة. حين تكلّمت المذيعة، نسفت فيّ احتمالات كتابة الشعر. طارت أفكاري الدافئة البعيدة وأصبحت عادية، عادية جداً. كل يوم أقع في غرام الشاشة التي تحملني إلى المدن كلّها، فأتوق إلى أن ألتقيها، وفي لحظتي تلك لا أخاف الغربة. في الصباح أستمع إلى نشرات الطقس وأشاهدها. أتابع أخبار المطر والشمس في مدن العالم كله. تنقلني أحوال «السماء» من أبوجا إلى الدار البيضاء إلى باريس، مسحورة بنغمات صوت المذيعة الفرنسية وبالمجلات والكتب الفرنسية. أحبّ باريس، أحبّها

من كل قلبي. وأحبّ الأغاني الفرنسية والمجلات والكتب الفرنسية والزبدة وألوان العلم الفرنسي. أحبّ جاك شيراك أيضاً ومصوّرة فرنسية علّمتني أن أعشق الشقاء ومشاهد البؤس وقبح الواقع أحياناً. علّمتني أن أحب في بيروت شوارع بائسة، كنت أنكر وجودها، وأن أحرص على أن أستكشفها. صوّرت الرؤوس من دون قبعاتها والحقيقة من دون أي دثار يخفي علامات الألم، والعالم الذي كان سفلياً أصبح مشهداً في عداد المشاهد. واعتبرتْ صورَها كنوزاً تسمح لها بأن تعيش فقيرة، وصوّرت القبح أيضاً من أجل عالم أجمل. كانت تحمل الكاميرا دوماً وتقول: «يجب أن أبتعد عن الكاميرا».

قرأتُ عنها خلال أعوام مراهقتي في المجلات الفرنسية التي كانت ترميها جارتنا الفرنسية وتضعها على الدرج الفاصل بين شقّتنا وشقّتها، فكنت أجلس هناك، سعيدة بالعتمة وبانقطاع الكهرباء وبالسكون الذي حلّ فجأة في المكان، كي أقرأ أخباراً باريسية، أخباراً عن معارض وحفلات ومسارح ومطاعم كنت أبحث عنها في بيروت برغم صغر سنّي. وحاولت أن أقلّد المصوّرة. شُغفتُ بالتصوير كي أشبهها. وخلال أعوامي المدرسية الأخيرة، كنت أحاول أن أقلّدها برغم صعوبة خروجي من البيت خوفاً من جنون الحرب، الذي يحبّ المفاجآت. بعدما طالبت بكاميرا وحصلت عليها، صوّرت شرفة المطبخ في بيتنا حيث وقفتُ لأتلصّص على موت المقاتل ودمه الذي لوّن خزانات المياه. صوّرت الشرفة والعصفور في قفصه في المطبخ في بيتنا، وأمي حين لا تتخلّى كفّها

عن خدّها، والجيران حين تتدوّر عيونهم وتظهر حناجرهم معبّرين عن غضبهم مني وعن «صياعتي» حسب تعبير أبي جمال في الطبقة الأولى. صوّرتُ الخوف أيضاً في عيون غير ملوّنة وغير رومنسية وغير حزينة وغير سعيدة، عيون حيّة كأنها غير حيّة. خائفة كانت العيون التي صوّرتُها أمام مدخل البناية وعلى السلالم حيث كنا ننحشر هرباً من القذائف أو خوفاً من الموت. كبرتُ وأنا أقلّد المصوّرة الفرنسية. وعندما قيل لي إن الحرب انتهت، كنت في عامي الجامعي الأول. وصار الدوام الجامعي يحرّرني، فظللتُ أقلّدها في عطلات نهاية الأسبوع. لكنني لم أكن يوماً حرّة.

حين كنت أصوّر كآبة الوجوه المعلّقة على درابزين الكورنيش يوم أحد مشمس وسط دهشة بعض المارة من جرأتي، رأيتُ عامر. عرفتُه ولم يعرفني. عرفتُ أنه الشاب الذي يحرّك يديه كلّما تكلّم مع الصحافية الصغيرة في المقهى. لا أنسى وجه الصحافية المفرط في نعومته، والذي تطلّ منه شرايين زرقاء رفيعة، توحي أنها ستنكسر حين تتكلّمُ وحين تُطيل جملها. الصحافية الصغيرة كانت تجلس معه دوماً في مقهى «مونتي كارلو» الذي صار بيتي بعدما تخرّجت في الجامعة والذي ودّعتُ مي فيه. والصحافية الصغيرة عرفتُ أنها صحافية لأنها كانت تحمل دوماً أوراقاً ومجلات وأشرطة صغيرة الحجم وآلة تسجيل. سألتْني مرة عن رأيي في تأخّر سنّ الزواج عند الفتيات، فابتسمت لها طويلاً وأجبتها إجابة ظللتُ فخورة بها خلال أيام. لم أكن قد بدأتُ بعد رحلة البحث عن عريس. ولم أكن أفكّر بعدُ في سنّي، التي تسابق خططي الفوضوية والمفتعلة، والتي لا

تتحقّق، لحياة فوضوية وفارغة في الوقت نفسه. ولم أكن أفكر بعد في ضرورة أن أنجب خلال الأعوام القليلة المقبلة.

عرفتُ عامر ربما لأنه أعجبني حين رأيته في المقهى مع «صديقتي» الصحافية. على الكورنيش كان يمشي مشياً سريعاً وكان حزيناً. لم أكن أعرف أنه يبدو دوماً حزيناً. حرّكني جسمي رغماً عني، جسمي سجني الذي لا أستطيع الهروب منه، هرب مني وتحرّك. لم أخجل من نفسي حين فكّرتُ في أن أشدّ قميصي إليّ، فربما لحظ خصري. لم يرَني، أسرعتُ في المشي وتجاوزتُه كأنني أنتقم منه.

في مقهى «مونتي كارلو» أراقبه من بعيد يحرّك يديه ليظهر بينهما وجه الصحافية الصغيرة. صرتُ أشبهه. تعلّمتُ من تعابير وجه الصحافية أن أبدو متشوّقة لسماع أحاديثه. وعرفتُ أن أجلس محلّها، قبالته. لا شكّ في أنه عرف وجهي المعلّق في المكان نفسه، في المقهى الذي يرتاده، هو أيضاً، كلّ يوم. أجلس كل يوم في كرسيّ القريب من كرسيه. عرفني حين مشيت إليه وبدأت الكلام قبل وصول الصحافية التي اختفت بعد أيام من ظهوري في مساحتهما. واحتللتُ محلّها، قبالته، وكنت أبتلع كلامه وأحس بأنه يقدّمه لي وحدي وبأنني وحدي أمتلك الحقّ في أن أتصرّف به. صار يشبهني، وكنا نتشارك في حبّ الكتب وإهمال الواجبات الاجتماعية.

في هذا المقهى، حيث الكراسي الخشبية بنية جداً، و «المساند» زيتية ونبيذية، وحيث النادلة شعرها أحمر وابتسامتها شديدة البياض، وحيث صاحب المقهى العجوز لا يتوقف عن التدخين، فرحتُ

بعامر. عامر بالنسبة إليّ مثّل الوجه الذي أحبه أكثر في بيروت. وكان أحياناً يمثّل حبي لوجوه بيروت كلّها. عامر المثقّف والحرّ والفقير بسعادة أو المدّعي الفقر والذي يطمح إلى أن يظلّ فقيراً. الوسيم من دون أن يبالي بوسامته والحنون من دون أن يُظهر حنانه والمجنون كلّ لحظة. عامر أحد أبناء الطبقة الوسطى في بيروت، الذين يحبّون مقاهي شارع الحمرا، من دون أن يحقدوا على رواد مقاهي شارع فردان. عامر هو وجه بيروت الطبيعي غير المبرّج، بيروت التي كنت أشتمّ رائحتها من أخبار أمي المستوحاة من أوائل السبعينيات، قبل اندلاع الحرب، حين كانت أمي لا تزال، هي أيضاً، «لطيفة» وطبيعية وحرّة. لم تظهر عقَد عامر إلا لاحقاً، وما عذّبني إلا لاحقاً. دائماً يرتدي بنطلون «الجينز» وقلّما يغسله، حتى إنني لم أخجل مرة من أن أسأله: «متى غسلت بنطلونك؟». طلبت منه مرة أن يعطيني قمصانه الوسخة لأغسلها في بيت أهلي حيث لم أدخل المطبخ وغرفة الغسيل منذ أعوام. لكنني كنت مستعدّة لدخولهما لأجله. عامر فعلتُ لأجله أموراً عدة للمرة الأولى. لأجله زرت مدينة الملاهي في الروشة، ولأجله مشيت في تظاهرة، ولأجله خرجت مراراً من البيت من دون أن ألوّن وجنتيّ بالظلال. لأجله أكلت لحم «الغنم» وزبيباً مع الأرزّ، ولأجله ابتسمت وفمي ملآن بالطعام. لأجله انتقمت من تلميذة مدرسة الراهبات التي كنتُها.

في مقهى «مونتي كارلو» في شارع كليمنصو في بيروت، انفصلت روحي برقّة خفية سريعة صامتة عن روح عامر. لم نصبح يوماً حبيبين. أضعنا فرصة الحب مرة حين غادرني بعد سهرة طويلة

في المقهى من دون أن يقبّلني. وكنت أنظر إلى شفتيه منهمكتين بالكلام، كلام سمعته ألف مرة من قبل. فأتخيّلهما تقتربان من شفتيّ ثم أطرد المشهد من رأسي. توقّعت أن يقترب وجهه من وجهي لوداعه، لكنه مرة أخرى أتقن دور الحكيم الذي لا يشبهه. مرة أخرى أنقذني من نفسي. ولو لم يهرب مني لما أصررت على السفر. أنسى كل مرة غياب الحدود في علاقتنا. أنسى الصداقة وأنسى الحب. وكأنني لا أعرفه، كأنني أراقبه من بعيد ولا أعرفه، وكأنني أعرفه من بعيد، أنتظر منه أن يخطو نحوي خطوة تحدّد علاقته بي وتخفّف حقدي على حياتي. وكأنني لا أعرفه، أنسى ولعه ببيروته وبحياته فيها المتفلّتة من أية قيود وبقاءه فيها وإن عاطلاً من العمل. يبقى فيها وفياً للكتب وللمقاهي. يبقى وفياً لها على حساب علاقتنا التي لا يحدّدها ويحبّها أن تظلّ تائهة بين الصداقة والحب. وأنا أريده كما أعرفه وكما عرفته. وأنا أيضاً لا أعرف ماذا أريد.

معظم يومي الثاني من أسبوعي الأخير في بيروت أمضيتُه في «مونتي كارلو كافيه». ابتسمتُ قليلاً حين فُتح الباب الزجاجي وامتلأ المكان دخاناً قبل أن يصبح عامر أمامي. قميصه الأسود نصفه أسفل البنطلون ونصفه خارجه، ضائعاً كعادته، بدا كأنه يجلس قبالتي رغماً عنه وكأنه يفضّل أن يكون في مكان آخر لا أعرفه. أعاتبه الآن قبل خمسة أيام من سفري على طول غيابه كأننا لم نلتقِ منذ أسابيع. وفي هذا المقهى نفسه، يقرأ لي عامر الشعر قبل أيام غربتي. قرأ شعره الذي يكتبه خلسة والذي ينجح دوماً في أن يفاجئني به.

«لا يليق بكَ الشعر»، قلتُ له. «أستطيع أن أراك فيلسوفاً أو

سياسياً «نظيفاً» فاشلاً. لكن الشعر حميمي جداً، الشعر يفضحك، ويعرّي وجعك المحفور على وجهك والملوّن كندبة حفظتُ مكانها».

لا يردّ عامر على كلامي كأنني لا أفهم ما أقول أو كأنه، هو نفسه، لا يفهم ما أقول، أو كأنه، بكل بساطة، ملّ كلامي.

كأنني في صالون بيتي، أستقبل وأودّع. أستقبل شعوراً بالمرارة وأودّع شعوراً بالمرارة. لم يترك عامر مكانه أي جواب. ترك الغموض نفسه الذي يلفّه. خرج ولم يلتفت إليّ من وراء الباب الزجاجي. خرج كأنه يخرج من الموت إلى الحياة، كأنه يعرف تماماً أين سيذهب. وللمرة الأولى، لم أبال بخروجه، فقط عدت لا أحس بأي شيء.

في «مونتي كارلو كافيه» يحقّ لي ما لا يحقّ لغيري. فقد عشت فيه حين لم أودّ أن أتخلّى عن الجامعة وحين لم أكن مستعدة لأن أنفصل عنها. وانتقلت منها إليه حيث أستطيع أن أراقب بوابتها البحرية. كانت دوماً أمام عينيّ، تركت فيها أكثر أعوامي خفّةً وأكثرها تحرّراً من صوت أمي ومن جزء فيّ يشبهها ويريد أن يتبع الخط المرسوم لفتاة في مدينتي تخرّجت في الجامعة ولم تجد عملاً.

ودّعتُ وجوهاً عرفتُها وما عرفت أصحابها. أخبرتهم بأني سأسافر وبأنهم لن يروني الأسبوع المقبل أو الأسبوع الذي يليه. ابتسمتُ في المقهى حتى تعبتُ.

كنت النجمة وكان عامر يراقبني. هذه المرة حرّكت أنا بيدي وما شئت أن أتابع أخباره وأن أعرف ما يدور في حياته، وبما يملأ أيامه، وكيف يصحو ومتى ينام وإن كان يجد المال الكافي للخروج مع امرأة. ما سألته هل شعر بالغيرة حين قررتُ قبل أسبوعين أن أوافق على الزواج برجل مجهول أم أسيحزنه سفري. وكنت لا أريده أن يكتفي خلال أيام من سفري، بأن يشعر بضيق أو فراغ. كنت أريده أن يحزن. أريد أن يحزن أحد لاستسلامي ولانسلاخي عن بيروت.

أخبرتُ عامر عن الخطيب ولم يغَرْ. لم أشعر بذلك على الأقل. خفت أن أفقد متعة الجلوس معه، وربما كان خوفي من فقدان ثرثراتنا الحرّة في المقهى أحد أسباب رفضي الزواج من «مرشّح أمي». لكنني لم أرفضه لأن القرار بيدي أو لأنني حرّة، فما زلت أصرّ على أنني لم أكن يوماً حرّة. عثرتْ أمي على الخطيب بعد مساعٍ طويلة ومفاوضات تحت الطاولة وفوقها انتهت باتصال والدته بها وباتفاقهما على ضرورة أن يلتقي العصفوران كي يغرّد أحدهما مع الآخر. وعَدتُ أمي بأن ألتقيه ثم جبنتُ. فكّرتُ. خفتُ من أن أعلق مع جسم لا يعرف أن ينصت إليّ، خصوصاً أنني أميل أحياناً إلى أن أتكلّم طويلاً. وحين خفت حسمت مرة جديدة أمر السفر. اخترت الغربة، وكانت في الحقيقة تختارني هي مرة أخرى. لا أحتاج إلى رجل لا أعرفه وأقنع نفسي بأنني «هناك» حيث سأعيش، «هناك» في الغربة سأكتب ما أحتاج إلى أن أنطق به، سأكتب لقاءاتي وعامر وقصّة ليلى وقيامة بيروت. سأكتب الكلام الذي كثيراً ما حلمت بكتابته والذي لا أصرّ على أن أسمّيه رواية.

خفتُ أن يحوّلني العريس امرأة مكبّلة بعلاقة لا يحكمها الحب. خفت، برغم أنني لم أكن يوماً حرّة حتى في خوفي. أدّعي أمام عامر أنني عدت لا أخاف السفر. سألت عامر «أسأظلّ طوال حياتي أستمع إلى مغامراتك ونظرياتك التي تفترض دوماً مؤامرة عليك وعليّ وعلى بيروت وعلى العالم؟». من جلساتي معه أستوحي دوماً يومي المثالي الذي أرغب في أن أعيشه على الأقل مرة في الأسبوع. وقبل خمسة أيام من سفري في مقهى «مونتي كارلو» تيقّنت من أنه لن يعترف لي بما سيغيّر علاقتنا إلى الأبد. فأخبرته عن خطة السفر وعن حياتي في الغربة كما لا أستطيع أن أتخيّلها.

صَمَتَ عامر وادّعى اهتمامه بما يسمعه. ربما كان فعلاً مهتمّاً بكلامي. وربما استراح عندما عرف أنني سأختفي، ولام نفسه على محاولة الاعتراف بالحنان الذي يجمعنا وبتشويه الكلام الذي لا يجمعنا وندّعي أنه يجمعنا. لم يكن ممكناً أن أوافق على الزواج من الرجل الغريب. فكّرتُ في أن أتزوّجه كي أنجب طفلاً وأستريح من ضغط فوات أوان الإنجاب، لكن حين تنفجر الأوضاع بيننا، سأعيش مع الطفل وحدي، سيلتصق بي، سأحبّه طبعاً، لكنه سيلتصق بي وحدي. سيحبّني، لكنه سيبحث عن تاريخ اسمه وعن قصته، عن والده الذي سأظلّ أجرّ اسمه». ثم سكتُّ.

لم يتكلّم عامر أيضاً. خفنا أن يغيّر الكلام خطتي. فربما نفعت قصائده في أن تواجهنا بقصة، حقيقية أم لا؟ لا يهمّ. لكنها ستكون قصة ولا يهمّني أن تكون موقّتة، على أن تكون قصة، لكنني وافقته على مقاومته وهروبه مني، وما أردت أن أتمسّك به كي أُفشل خطة

السفر كما حاولت أن أفشلها حين فكّرتُ في العريس. لم أستطع أن أصنع من عامر يوماً حقيقة. ولأنه لن يكون حقيقياً في حياتي، سيكون جزءاً من نصي. سأحبّه قليلاً في نصّي الذي سأكتبه في دبي. وسأواجهه فيه. ولن أخاف. وعدت لا أخاف قصائده، وشهيته المفتوحة لكلام لا أفهمه، لكنه يؤثر فيّ.

ودّعتُ عامر بعدما ودّعت مي ونسيتها. وانهمكت بتحليل علاقتي بالمكان الذي منحتني حدوده وزواياه وجدرانه وكراسيه وطاولاته وأرضيته، خلال ساعات وأيام وشهور، إحساساً بالحرية. لكنها حرية مرتبطة بالمكان وبالساعات التي أمضيها فيه، حرية مشروطة، تسكن مساحة معينة وتحدّها جدران وسقف وأبواب زجاجية... لم أكن يوماً حرّة. لكنني أستطيع اعتبار هذا المكان ملعباً لحريتي، فهل يتغيّر موقعه في ذاكرتي، وهل يتغيّر شكله؟ هل أستطيع أن أحمل هذا المكان معي إلى دبي؟ وهل أجد مكاناً يحلّ مكانه؟ وهل أحتاج هناك إلى مكان يشبهه؟.

ليس بوسعي أن أتخيّل المكان الذي سأصير فيه. يصعب عليّ أن أتخيّل الصحراء، التي كلّما فكّرتُ فيها تذكّرتُ لوحات تصوّر كثبان الرمال عُلّقت في غاليري «أماكن» القريب من مقهى «مونتي كارلو» أو الصحراء في أفلام الرسوم المتحرّكة التي كنا نشاهدها على شاشة «تلفزيون لبنان» بعد بدء البثّ الساعة الثالثة ما بعد الظهر. فكيف تحمّلنا الحياة من دون تلفزيون ومن دون ساعات بثّ متواصل؟ كنا ننتظر النشيد الوطني وظهور العلم، فنهلّل لبدء برامج «أحبائنا الصغار». الرمال كنت أراها في أفلام «بوبابي» و «تان تان»

ثم في أفلام هوليوودية. لا أعرف أن أتخيّل الصحراء التي سأعيش فيها والبنايات النابتة وسطها. حاولت أن أفكّر في الشقة حيث سأعيش، في سريري هناك، في الأرض المغطاة ببلاط أبيض والتي ستدوسها قدماي فقط. في غرفة الجلوس والتلفزيون ومحطاته الخمسين والستائر السميكة والكنبة التي سأتمددّ عليها وحدي وأجلس عليها وحدي والتي ستكون لي وحدي. فكّرتُ أيضاً في الممرّ الضيّق القصير المفضي إلى غرفة نومي حيث سأكتب نصي، فعلاقتي متينة بغرفة النوم التي آوي إليها، والتي حيثما أذهب تظلّ عالمي الخاص. في الشقة سيكون لي حمامي الضيّق، ومناشفي التي سأختارها كلّها بيضاء، سأختار مناشفي وحدي. كم سيريحني أن أنام على شراشف بيضاء أيضاً بلا ورود أمي وبساتينها المصوّرة على شراشف قطنية «مئة في المئة»، كما تقول عندما أتذمّر من ألوانها. في الشقة وحدي سأصحو لأشرب القهوة ولأقرأ مستمتعة بتفاصيل الحياة الصباحية اليومية من دون أن يكون عليّ الاسراع إلى نشرات الأخبار أو الشعور بأن ثمّة عدواً يتربّص بي وينتظرني خلف باب بيتي. لم أعرف الطمأنينة يوماً ولست متحمّسة لمعرفتها. ولدت في بيروت، وأقول إنني أتوق الآن إلى مغادرتها. وبعد أن أتوق، أحاول أن أغادرها ثم أصارع نفسي من أجل أن أغادرها، لكنني أبقى في غرفتي. والأسبوع الأخير يتحوّل إلى الشهر الأخير. والأسابيع الأخيرة متشابهة. وليلى لم تمت بعد، لكنها ستموت. وبيروت ستتغيّر. وبين بيروت وبيروت لا تتغيّر غرفتي ولا أتغيّر أنا فيها. أريد أن أخرج منها إلى المطار، أريد أن أخرج من غرفتي إلى الطائرة.

قلتُ لليلى إننا «نحتفل بالحياة في مدينة ميتة». ليلى ترقص مع يوسف وأصدقائه في النوادي الليلية، مع أنها لا تحبّ الرقص. وتواظب على الاحتفال والسهر، فلا يمرّ ليل سبت من دون أن تمضيه معهم في أماكن باتوا جزءاً منها. «أردنا أن ننسى سريعاً ونسينا سريعاً. لكننا كنا نحسّ دوماً بأن ثمة خطأً ما وأن ثمة ما لا نفهمه جيداً، وأن ثمة وحشاً يستيقظ حين ننام ويغيّرنا» قالت ليلى. لم أكن، أنا وليلى، نتحدّث عنا فحسب، كانت بيروت دوماً بيننا.

في تلك الليلة، كنا في الملهى القريب من مكان عملي في الكرنتينا. تنام خلفه شوارع ضيّقة مترابطة تفوح من أرجائها روائح الغاز والنفايات والمباني المهجورة والمصانع والجثث المدفونة تحتها. الملهى قريب من الشارع العام، ويتقدّم الشوارع الصغيرة كأنه يحاول إخفاءها أو طمسها، ويريد لمرتاديه أن ينسوها. وربّما لا يعرف مرتادوه بوجود هذه الشوارع ولا يعرفون تاريخها. وربّما لا يريدون أن يعرفوا أو يتذكّروا حتى أسماءهم. في الملهى الشهير، في تلك الليلة أنهكتني الموسيقى. لا أعرف أن أحتفل بالموت. حاولت ولم أستطع. شدّتني ليلى من طرف كمّي. أدخلتني وسط الحلقة حيث تجنّ الموسيقى وتعانق أشباح المكان وتاريخه الدموي. كانوا كلّهم يرقصون وينسابون مع الموسيقى ويتدحرجون من على كراسٍ عالية خمرية اللون ويتأرجحون على ستائر حمراء دكناء. في الملهى حكت لي ليلى الحكاية كلّها. والد يوسف لا يقبل بها... «قصة قديمة» قلتُ. أمها لبنانية أرمنية. والدها تخلّى عن إسلامه، عدا أنها ترافقه إلى السهرات وتتأخر ليلاً في الوصول إلى بيتها. «فكيف؟».

«كيف، ماذا» سألتها؟.

«شو قصتك؟... كيف ستقبلني عائلة طبيعية ليست مثل عائلتي؟».

«من قال لك إنها طبيعية؟ شو يعني طبيعية؟».

هذا الكلام كان قبل شهور فقط، قبل شهور.

«لا يهمّني إن كان يعاملني بازدراء أحياناً، أعرف أنه يحبّني وأنني لن أكون مثل معظم الفتيات لأنني تعلّمت اللعبة، لعبة التمثيل وتقمّص الأدوار، متأخّرة. لم أفكّر في أهمية الكذب على جسمي كي أحصل على عائلة، كي أصنع عائلة. لم أفكّر في أن أضحك على جسمي كي يتغيّر، ألاّ أحب به، ألا أستخدمه حين أحب، أن أستخدمه طُعماً فحسب، صورة تجذب المستهلك. لكنني أحنّ إلى عائلة، من حقّي أن أحصل على حبّ دافئ، ألاّ آكل وحدي لأن أمي وأبي لا يقبلان أن يجلسا في الغرفة نفسها».

لو لم تمتْ ليلى، لرأتني أتاهّب للسفر، لكن ليلى غيّرتني. ولو لم تمت ليلى، لربما تحقّق ما كانت تحدس به، ولربما رأت بيروت تتغيّر فجأة. «أنتظر أن يحدث أمر ما» كانت ليلى تقول. على ورقة صغيرة بدأ نهاري الجديد. بعد أربعة أيام أسافر. كتبتُ أسماء شخصيات النصّ الذي أريده أن يسكنني في غربتي بدلاً من المدينة. بدأت كتابة الأسماء كي أبدأ من مكان ما. أخيراً، أحسّ بأنني أُسرع نحو بداية ما، ربما نحو أكثر من بداية. اخترقتْ يدي شمسٌ خجولة ارتمت على طاولة المكتب وأضاءت أوراقي وكتبي التي وعدتني

بوظيفة وبحياة مختلفة. لكنها لم تتدخّل حين لم تتحرّك أيامي. لم أجد عملاً يعدني بأن أستمتع بتنفيذه أو بأن يقدّم لي، وإن بعد أعوام، جزءاً من الأموال التي يذكّرني والداي بأنهما بدّداها عليّ. ليس لأنهما ندما أو لأنهما لا يحبانني، كما يجب أن يحباني، بل لأنهما يشفقان عليّ كما أُشفق عليهما. لا أقول لهما إن أحوالي المادية سيئة وإنني تعبة ومصدومة أيضاً، خصوصاً أمي، لا أقول لها أي شيء. ولا أمنحها فرصة الخوض في أحاديث تورّط العواطف وتتحوّل إلى اعترافات. لا أعترف لأمي بخيبة أملي في حياتي في بيروت خلال الأعوام العشرة الأخيرة. لكنها تعرف وتفهم وتتفهّم وتصمت. لم أقل لها يوماً إنني متضايقة من عملي، حين كنت أعمل، أو إنني أبحث دوماً في الصحف والمجلات وفي المواقع الإلكترونية عن فرصة تأخذني إلى حياة جديدة. وجدتُ شبه فرصة بعيدة جداً عن شارع الاستقلال. هذه المرة قبلتُ بفرصة كثيراً ما اعتبرتُها دعوة إلى المنفى. وقبل أن أختبر المنفى ازداد تعلّقي ببيروت. أهدّدها وأهدّد نفسي بالسفر وأبقى في الغرفة حيث ما زلت أعيش مع كتب معدودة أياماً لا تتغيّر. فلم يطبع حياتي حدث أستطيع من خلاله أن أقسّم أيامي مراحل، ما قبل السفر وما بعده. سأقسّم حياتي حياتين، قديمة وجديدة. لكن حين أبدأ كتابة نصي الذي أريده أن يكون حياتي الجديدة، سأكتب عن حياتي القديمة في بيروت. وستشبه الشخصيات التي أختار أسماءها الآن وأتذرّع بها، كي لا أغادر الغرفة، ليلى وعامر وكمال وأبي وأمي، وستشبهني أنا.

بقيتُ في الغرفة كي أتمرّن على الكتابة. في المدرسة قالت لي

المعلمة التي لا تستطيع أن تبتسم، إنني أجيد الكتابة. فاجأتني. ومنحتني فرصة أن أكون نجمة بين البنات. وأصبحتُ أهتمّ بنجوميتي وأخاف عليها، وأصرّ على أن أميّز نفسي منهن وأذكّر نفسي، عندما أُخفق في امتحان، أو عندما لا أُدعى إلى حفلة ما، بأنني مختلفة عنهن. كنت أعرف أنني أكذب على نفسي وأنني أصدّق نفسي، دائماً كنت أخبّئ الكتابة إلى حين أُجبر على أن أسأل نفسي هل كنت فعلاً أستطيع أن أكتب؟ أخبّئ حياة جديدة أو خيبة جديدة. أفكر دوماً في أنني سأحاول يوماً ما، أن أكتب، وفي أنني إنْ كتبتُ الأحداث، فسأفهمها، وإنْ كتبتُ نفسي، فسأفهم نفسي.

في غرفتي أرغمتُ نفسي على الكتابة. أستغلّ الصباح الذي يحبّه الكتّاب أيضاً. قرأت عن كتّاب كثر أنهم يفضّلون الكتابة في الصباح المبكر. مثلهم أستغلّ في الوقت الصباحي صفاء ذهني و صفاء اللحظات قبل أن تتلوّث بروائح صناديق النفايات وعدائية المشاة في الشوارع وسائقي أنهار السيارات والشائعات اليومية التي نكتشف سريعاً أنها حقائق كزواج المغنية السمراء في السرّ بالسياسي «الكبير» أو طلاق المطربة من زوجها الذي هو أيضاً مدير أعمالها. في الصباح الذي تبعثه صباحات قليلة أمضيتُها في بيروت، حاولتُ أن أكتب. الشخصيات التي سأكتب نصي من خلالها سمّيتها ليلى وعامر وكمال...

لم تطل اللحظات، ظلّت قصيرة لحظات الكتابة غير الأوتوماتيكية. ركّزتُ وحاولت وحككت رأسي وتمشّيت في الغرفة. فتحت كتب الشعر بالفرنسية والإنكليزية والعربية. وشغّلت الراديو،

الذي ما زلت لا أنام من دونه، والذي ما زال يرافقني منذ أيام الحرب، ولم أستطع أن أتخلّى عنه. استعنتُ بالموسيقى كي توحي لي جزءاً من نص أو جملة أو كلمة. لكنني صرت قديمة، أحسّ بقِدمي. حتى الموسيقى لم تمنحني الشعور بأنني أتجدّد وبأن الحياة جميلة أحياناً وبأنني أحبها. أعشق الراديو، ما زال بالنسبة إليّ الاختراع المفضّل. أسمعه من دون أن يسمعني. أعترف بعراقته كل لحظة، لا يُبتذل، لا يرخّص نفسه مثل التلفزيون. وبساطته حقيقية وجميلة، ولا يفرّق بين الفقراء والأغنياء، بل هو مستعدّ للتحدّث مع الجميع. عدا أنه يشغل نفسه بنومي، يقدّم إليّ أصواتاً مختلفة كي أذهب إلى النوم، أصواتاً بالأبيض والأسود. أستطيع أن أغمض عينيّ من دون أن أهينه. وحاجتي إليه تفوق حاجته إليّ. توقّفت عن التغزّل بالراديو وبدأت رسمياً محاولة الكتابة. وعدتُ إلى نجوميتي المدرسية أيام كنت أُحرم بين مواعيد الحصص، اللعب في الملعب مع صديقاتي كي أكتب باسم التلميذات، بناءً على رغبة مديرة المدرسة، عن عيد الأم أو عيد الطفل أو عيد الشجرة. صدّقن أنني مهمّة في تلك الأيام. أمشي في الملعب إلى بركة الأسماك المدوّرة وأنا أفكر في جملة تعجب المديرة. وأمشي في غرفتي بين النافذة والباب المقفل دوماً، على قطعة الموكيت الرمادية، أمشي، أروح وأجيء، أنظر إلى سريري الذي يعرف أسراري كلّها، أحب أن أشحنه معي إلى دبي. ثم أفكّر في أنني أريد ترك كل شيء هنا. يجب أن أكتب كي تنجح خطّتي في اختراع مكان لي، مكان أستطيع أن أقول إنه مكاني وإنني أنتمي إليه. قبالة سريري مرآة عريضة، أجد

نفسي دوماً داخلها. أبحث في وجهي عن الكلمة الأولى، الكلمة الثانية. أين أنا؟ أسأل نفسي.

كي أكتب عرفتُ أنني سأستعملهم كلّهم. كي أكتب، فرحتُ بليلى وبأيام المشي معاً على كورنيش البحر في منطقة المنارة. نمشي كي تصبح سيقاننا أنحف وأجمل. نمشي كي نكتشف الشبه بين حياتينا، فيسهل أن نفهم حوادث ومعاني في كلّ منهما. نمشي كي نتكلّم ولأننا أيضاً نحب كورنيش البحر والمنارة. كي أكتب أيضاً تبعتُ كمال إلى مملكته، إلى بيت قلّما غادره في شارع بيروتي بلا منفذ، تغلقه بناية عريضة. ربما كان الشارع الوحيد الذي لا يفضي إلى مكان. أما عامر، فقد كتبني قبل أن أستطيع أن أكتبه. لا أستطيع أن ألتقطه، ينجح دوماً في الهروب مني. عامر يقف دوماً في وجهي. وعلى عكس ما أردت، علاقتي به بدأت بالانهيار منذ فكّرت في الاستعانة بالكتابة. عدا أني عدت لا أراه بقدر ما كنت أراه من قبل. صارت لقاءاتنا متباعدة وقليلة. عدت لا أرغب في أن أراه خارج المقهى مثلما كنت ألحّ عليه. كنت أحبّ أن ندخل داراً للسينما معاً أو أن نشاهد معاً مسرحية. أحبّ أيضاً أن نأكل معاً في مطعم إيطالي في منطقة سن الفيل تُعزف فيه موسيقى رومنسية. وكنت أفكر دوماً في أن أفاجئه بزيارته في شقته التي لم أعرفها. كنت أوصله إلى بداية الزقاق حيث يسكن، وأنتظر أن يقول لي «تفضّلي»، لكنه لا يقول ولا يدلّني على نافذة في الشقة أو شرفة أو حتى على طبقة أو حتى على البناية التي يسكن فيها. ولم أحاول أن أزوره خوفاً من غضبه. أقنع نفسي بأنه يعيش مع صديقة أو يتشاطر

الشقة مع مستأجر ثانٍ. لم أحاول. ستكون زيارته مغامرة تليق بأيامي الأخيرة في بيروت. نهضتُ، تركتُ الأوراق وركضت نحو تنفيذ فكرتي. سألت عنه أسفل المبنى الأول من جهة اليسار، ثم في المبنى الثاني من الجهة نفسها، سألت البواب. . . «الطبقة الخامسة، إذاً. . . شكراً».

في المصعد خفتُ كأنني أنتظر أن أدخل قاعة أخضع فيها لامتحان شفهي أمام لجنة ستقرّر حياتي. أخاف عامر، أحترمه وأخافه في الوقت نفسه.

قبالة الباب وقفتُ، انتظرت قليلاً قبل أن أدقّه كأنني عشت هذه اللحظة من قبل، كأنني رأيتها في منام أو عشتها في حياة أخرى. لم أسمع صوتاً من وراء الباب، تخيّلته نائماً، دققتُ دقّات قوية. أدقّ الباب وأخاف حتى أرتجف.

فتح عامر الباب، فبدا كأنه مستيقظ توّاً من النوم. لم يرَني. «صباح الخير» صرختُ بخوف. أحسست بأنه سيقفل الباب في وجهي. وقد حاول أن يقفله، فظلّ الباب مفتوحاً قليلاً. من الفتحة الضيقة دخلت وكنت أدوس كتباً مرميّة أرضاً، بعضها مفتوح مستسلم لكسل صاحبه، وبعضها الآخر حاولت أن أرفعه عن الأرض كي أفسح في المجال لكرسي قرّبته من السرير وجلست. للمرة الأولى اختفى الكلام بيننا. للمرة الأولى اكتشفت أن عامر يستطيع أن يصمت. بحثتُ عن صورة لي فوق الجدران أو إلى جانب السرير أو بين الكتب، لكنني لم أجد أي أثر لي في الغرفة. وكنت أريد أن أشرح له أنني لا أتسوّل وجوده إلى جانبي عبر زيارتي هذه. زرته

لأتعرّف على جزء أجهله في حياته ولأودّعه. زرتُه أيضاً لأرى المكان الذي ينام فيه ويقرأ فيه، والذي أَصرّ على حرماني إياه. ما هو هذا المكان الذي لا يسمح لي بدخوله، وكيف هو شكل أرضه وجدرانه وأثاثه؟ المطبخ صغير جداً، لا يكاد يستطيع الوقوف فيه لإعداد القهوة. لا بد أنه ينتظر في غرفة النوم الماء أن يغلي، ثم يدخل المطبخ «ليلقّم» القهوة، ملعقةً واحدةً فقط، أو ربما اثنتين، فلا فناجين على الرّف، في خزانة المطبخ الوحيدة والمكشوفة. ثمة فنجان واحد، والآخر متّسخ في المجلى. لم يسألني هل كنت أرغب في فنجان من القهوة. ولم يتكلّم. ولم أتكلّم لأنني انتظرت أن يكسر صمته، ولو بصوت ابتسامة أو بتنهيدة. وعندما طال صمته، وعندما لم ينظر إليّ، وعندما أحسستُ بحيرته ورأيتُ قليلاً من الزهو في عينيه المنحنيتين ولاحظتُ سكون يديه اللتين تتحرّكان دوماً، وجدتُ نفسي خارج الشقة. يبالي بسفري. يريدني عامر أن أسافر.

لم أحزن بل استرحت. رأيت أخيراً المكان الذي منعني من رؤيته. ولم يعن لي أي شيء. لم أحسّ تجاهه بأي إحساس. لم أحزن. تشاءمت فقط بالشمس. أردت أن يظلّ النهار ماطراً مثل الذي سبقه. أردتُه أن يمضي سريعاً مثل البارحة. السماء جميلة الآن والعاصفة أجمل.

إذا استمرّت العاصفة حتى يوم سفري، فربما أجّلتُ الرحلة. أمي لن تقبل أن أسافر في العاصفة، ستخاف. وللمرة الأولى سأقبل برأيها. لكن يجب، حتى إن استمرّت العاصفة، ألاّ أؤجل سفري. سئمت تأجيل حياتي. يجب أن أقبل بنهاية أولى وبداية أولى، من

أجل أن أغيّر، يجب أن أقبل بنهاية مرحلة، وأن أستعدّ لبداية مرحلة جديدة. عظيم هذا الكلام، أكتبه كي أحفظه. وهذه عادة تعلّمتها من معلمة اللغة الفرنسية في مدرسة الراهبات. أصبحت أكتب كي أحفظ، كي أنفّذ. أكتب وأحفظ ولا أنفّذ. «بيروت... نعم». كتبتُ. «نعم، سأرحل». فقدتُ عامر أيضاً.

لم يكن عادياً أن أفقد أصدقائي. لم يكن عادياً أن تضيق بيروت، أن تصبح مثل خرم إبرة، أن تنغلق على نفسها وتطبق علينا. كأن البنايات اقتربت من البنايات. ضاقت بيروت وباتت صغيرة. باتت أصغر مني.

رأيتُ الطائرة تنتظرني أمام مدخل البناية. وقبل أن أفهم عليها وأن أسمع نداء الطيّار، وقفت حياتي خلال أشهر. وعشت في غرفتي قبالة شاشة التلفزيون التي حاولت من خلالها أن أختبئ من بيروت، وأن أراها من دون أن تراني، حتى جلسات المقاهي، التي كنت أحبها ولا أستغني عنها، عدت غير متمسكة بها. تخلّيت عنها وعادت لا تغريني. حتى الاستمتاع بترف انتقاد كل شيء، الحياة السياسية والحُفر في الشوارع ومظاهر المذيعين والمذيعات وشفتيّ جارتنا اللتين انتفختا فجأة، عادة أقلعت عنها من دون أن أنوي ذلك ومن دون أن أتعذّب أو أربّي نفسي أو أعاقبها. حتى أصدقائي الذين وجدوا أعمالاً في بيروت، والذين يستطيعون أن يعشقوا المطاعم والملاهي، والذين ما زالوا يزورون المطاعم والملاهي كل ليلة، عدت لا أغار منهم. هؤلاء ليسوا أصدقائي أصلاً. فريد الذي يعمل في مصرف لم أرَه منذ عام، وزوجته كارلا اختفت منذ أكثر من

عام. لا أملك في ذاكرتي أي قصص عنهما، وهما من معارفي، من الوجوه التي تظلّ وجوهاً فحسب. في الطريق من منطقة الحمرا إلى بيت أهلي في شارع الاستقلال، لم أحزن على فقدان عامر. أهرب من لقائي الفاشل وإياه الآن، بكرامة، كما أهرب من كل ما بقي لي في بيروت، من الناس والأماكن. أعرف الآن غرفتي فقط. غرفتي في شقة مساحتها مئتان وخمسون متراً مربعاً. أفكّر في أن أقيس مساحة غرفتي، فقط للذكرى، وكي أقارنها بغرفتي الجديدة هناك. وقفتُ في وسطها، أقفلتُ الباب كالعادة. لا أعرف هل أخاف أن أشتاق إلى بيروت أم إلى غرفتي. من شقّتي الجديدة، أستطيع أن أعرف أي مكان أبكي الآن على فراقه. فبيروت كثيراً ما حلمتُ بأن أغادرها منذ كنت في المدرسة. كنت أعدُ نفسي بأن أطير، أن أحلّق فوق أوروبا وأميركا وإفريقيا، ثم أعود إلى بيروت التي لم أفكر يوماً في أن أبحث عن حياة طويلة عريضة خارجها.

لم يكن عادياً أن أفقد أصدقائي الذين سافروا أو ماتوا أو ملّوا رؤيتي. ثاروا على طريقتهم. ثاروا على العمل الذي لم يجدوه، وعلى الوعود التي راكمتها أعوام الدراسة الجامعية والتي لم تتحقّق، وثاروا على قصص الحب التي انتهت مع انتهاء أعوام الدراسة الجامعية. ثاروا على طريقتهم في الملاهي الليلية. ثاروا حين أصرّوا على الاحتفال بالحياة في مدينة يختفي منها الهواء. ثم ثاروا على المدينة خوفاً من أن تبتلعهم فوضاها الآسرة. هذا ما أحاول القيام به، أحاول أن أثور على مدينتي. منذ تركت العمل في الكرنتينا قبل عامين أو أكثر، أحاول الثورة عليها. لكن الأشهر الأخيرة كانت

حاسمة. غياب ليلى دفعني نحو السفر. وعامر غارق في متعه الغريبة: السهر والتدخين والشرب. يظنّ نفسه قد تجاوزني. يحاول أن يُفهمني أنه تخطّى حاجته إليّ وإلى صداقتي. «ودعتُكِ مئة مرة ولم تغادري. أستسافرين فعلاً بعد أيام؟ سأودّعك وأعتبر أنني فقدتك. وسأبكي، لكن هل تفعلينها وتبقين؟». ضحك عامر وأوجعتني ضحكته. جمله لا تتبعها نقاط، يلتصق بعضها ببعض كأنه مضطر إلى أن يستعجل حكايتها، كأنه يريد أن يسبق الكلام، فربما طلع من فمي أنا أو ربما انتهى. عبارات عامر مفتوحة، كثيراً ما تنتهي بعلامة استفهام كبيرة.

قبل أربعة أيام من سفري، وفي غرفتي المتواضعة في بيت أهلي في شارع الاستقلال في بيروت، أعالج بالتلفزيون حالة الذهول التي أصابتني من عدم مبالاة أحد بغربتي. التلفزيون علاج نفسي مهم. أستسلم لأصواته، وأحبها. أغار منها وأتمنى أن يحلّ صوتي محلّها، أن أصير صوتاً تلفزيونياً. ثم أنتقم من الأصوات وأخفيها وتظلّ لي الوجوه، لتسلّيني وتؤنس وحدتي. وحين أخفي الصوت وأرى الشفاه تتحرّك والوجوه تلتوي طرية كعجينة، لا تختفي مصيبة ولا يغيب غضب ولا تتنكّر شماتة ولا يخفّ استهتار. أستطيع من الوجه أن أفهم خطورة الكلام الذي يُقال. تصبح الحياة بتفاصيلها كلّها مسلسلاً تلفزيونياً. إذا أردت أن أستريح منه أخفي الصوت ولا أطفئه. كيف أتخلّى عن التلفزيون الذي لم يتخلَّ عني في محنتي؟ أُصبح مثل أمي. لا تخرج أمي من البيت. وتعيش حالة قرف دائمة. أمي تحسّ بالقرف إن غادرت البيت ولا تعرف المطاعم التي كنت أهرب إليها

من طعامها ونقّها. وأمي، التي لا تسكت في البيت، لا تتكلّم خارجه. تضيع إذا خرجت من غرفة الجلوس. التلفزيون الذي تجلس قبالته يختلف عن التلفزيون الذي أحتاج إليه. أصبحُ مثلها. أجلس قبالة الشاشة وأنتظر أن يحدث أمر ما، أن تحلّ مصيبة أو تُصنع معجزة، أن تتلوّن الشاشة بألوان جديدة كي تفقد الحياة في الخارج أي معنى. في الخارج، بيروت التي لا تعرفها أمي. في الخارج، بيروت التي أعرفها أنا ولا أعرفها. أعرف شوارعها وبناياتها وكورنيش بحرها وبحرها نفسه. لبيروت قلوب تنبض بطرق مختلفة، والحبّ في وسطها يختلف عن الحبّ في شمالها أو جنوبها. لا أعرف ما تخبّئه، وأحسّ دوماً بأن ثمة شيئاً ما تخبّئه. ولا أشبع منها. ودهشتي بها لا تنطفئ ولا تتغيّر.

أصبح مثل أمي. أعيش في عزلة تامة. في جزيرة، في فضاء آخر، على كوكب لم أسمّه بعد. ولم أسمّ نفسي بعد لأنهم سمّوني من دون أن يستأذنوني. وما زلت أتهمهم، كلّهم في الخارج حيث الشمس قاتلة أحياناً. كلّهم أتهمهم. حتى عامر، أتهمه بالتآمر عليّ كي يسرّع في رحيلي. لكن «حبيبتي» التي تفلت أحياناً من شفتيه، كانت تفضحه. «حبيبتي» كنت أحتفظ بها خلال أيام وليالٍ. أعيد الشريط الآن في رأسي والمقطع الذي ترنّ فيه كلمة «حبيبتي». كنا في مقهى «مونتي كارلو» وكان متحمّساً جداً للبيت في جنوب لبنان الذي قال إن والده سمح له بترميمه. للمرة الأولى أنتبه أن لعامر أباً. قاطعتُه لأسأله عن شكل أبيه ومظهر عينيه وعمره، وإن كان هو يشبهه أم يشبه أمه. اغتاظ مني وأكل شفته السفلى. فرحتُ. وسألته

عن طول والده «هل والدك طويل؟». لم يردّ. شرح لي تفاصيل خريطة سيتبعها في عملية الترميم. يحبّ عامر الخرائط واستخدام عبارات مثل «عملية» و«مرحلة». «حبيبتي، أراك لاحقاً»، أرجع كرسيّه إلى الوراء ونهض عنه سريعاً. رأيته من خلف الزجاج. وظللت أسمع «حبيبتي». عرفت أنه في لقائنا المقبل يكون قد نسي أنه قال لي «حبيبتي»، وعرفت أيضاً أنني لن أذكّره. أنتظر فقط. عدت لا أريد أن أنتظر. عدت لا أحس بأني أنتظر. اعتدت هدوء الوحدة. تفصلني عن الزحمة خطوات. أستطيع إنْ أردت أن أجد نفسي وسط مجموعة من البشر. قبل أن تغرب الشمس، أستطيع أن أجد نفسي وسط زحمة السير في شارع فردان، من حولي أصوات حادّة. لكنني أصبحت مثل أمي، أحبّ مدينة أخرى غير بيروت وأعد نفسي بها بعد أن تنتهي برامج التلفزيون.

لم يكن أمراً عادياً أن أفقد أصدقائي. عامر أراد أن يفقدني بعدما ملّ نقّي، وخطّط لأن يفقدني. وليلى لم تسمح لي بأن أعرفها أكثر. لم تعطني وقتاً. علاقتي بها نَمَت فجأة. خلال شهور قليلة، عرفتُها ودفنتُها. لم تسمح لي بمزيد من الدلال عليها ولم تعطني وقتاً كافياً لأخبرها بأن صداقتنا كانت المحاولة الحقيقية لإنقاذي. فقدتُها فجأة. كنت أستمع إلى قصصها وأنا مشغولة بالبحث عن قصصي، مشغولة بسفري، مشغولة بي دوماً. أهملتُ حاجتها إلى الحنان، إلى أن يهتمّ أحد بأخبارها وإلى أن أسألها وأوقف سردها مستفسرةً عن تفصيل هنا وتفصيل هناك، أن أسالها وأعلّق على كلامها. وكنت أنصت إليها صامتة. أستمعُ وأسكتُ. وما قلتُه لها لم يكن يوماً ذا قيمة. كان

مجرّد كلام أنتقل عبره إلى مأساتي التي ظننتُها مأساة. وماذا لو تخلّصت المدينة مني؟ لم تقل لي ليلى ذلك يوماً. وكانت تستطيع أن تصفعني بهذه الحقيقة، لكنها كانت أجمل من أن تجرحني.

كانت تجلس إلى جانبي وتقرّب وجهها من أذني وتبدأ. أهزّ رأسي وألوم نفسي على عدم اكتشافها من قبل. لكنها كانت في باريس حين كنا نجتمع في المساحات الفاصلة بين أبواب الشقق وأمام أبواب المصاعد نستأنس بأصوات الحرب ولا نخافها. كنا صغاراً نتسلّى بفكرة الموت ولا نفهمها. أذكر أنني كنت أقول «كلّها موتة» وأنا أصرّ على دخول المطبخ مع ابنة الجيران لآكل سندويش مربّى ولا أردّ على أمي التي كانت تلحقني إلى داخل البيت وتصرخ بي. كنا نحسّ أيضاً بحماسة أهلنا لما سيأتي، ولما ظنّوا أنه سيكون حتماً أفضل، سيكون قيامة المدينة وقيامتهم. الخيبة هي التي ألصقت أمي وأبي بالأريكة العريضة السكرية، أمامهما طاولة خشب مستطيلة يسندان أرجلهما عليها في غرفة الجلوس قبالة التلفزيون، خلفهما لوحة زيتية يحبّها والدي، تُظهر وجهي ووجه أختي وكنا بعد طفلتين. لا أعرف، لكنني أبدو فيها طفلة سعيدة. يقولون إن الطفل السعيد لا يتذكّر طفولته حين يكبر. وأنا أذكر المعارك، أذكر جيداً أصوات القذائف وألوانها. لكن أمي تقسم لي بحياتي إن طفولتي كانت سعيدة.

لم تعرف ليلى الحرب ولم أعرفها أنا تماماً. وأرفض، مثل ليلى، أن أصدّق أن هذه البنايات المحيطة بشارعنا كانت محروقة مأكولة مشوّهة متهرّئة. نوافق على قصص الدم والجنون القذر،

قصص القتل والخطف، ولا نستطيع تخيّلها. أنا مثلاً أرفض أن أتخيّلها، وكنت أرفض أن أشاهد فيلماً عن الحرب برغم إدراكي أهمية أن نعرف حقيقة ما جرى، وأن نعرّي هذه الحقيقة ونعترف بها. أستطيع أن أعترف بها جزءاً من تاريخي، لكني لا أستطيع أن أواجهها، أن أرى شاباً في مثل سني الآن يجرّد شاباً آخر في مثل سني أيضاً من روحه وإنسانيته ووجوده. أحبّ أن أفكّر في أن هذه البنايات النظيفة الجميلة المرتبة والتي تبدو طالعة من لوحات فنية، وُجدت على هذه الصورة. ربما لهذا لم أعرف أن أعيش في بيروت. يجب أن أبصم على آلامها كي تقبل بي. برغم أنني كنت وسط دمارها ولم أهرب، نسيت أنها كانت مدمّرة. أهلي لم يقرفوا وإنْ تعبوا، وتشبّثوا ببيوتهم. تشبّث والداي بحقّنا في أن نذهب إلى المدرسة كل يوم. أنا وليلى، ليلى نائمة الآن، وأنا غارقة في الأريكة الصفراء في غرفتي قبل أربعة أيام من سفري. كنا نتحدّث عن الحرب كأنها لم تكن حقيقية، وليلى كانت تتحدّث دوماً عن الحرب برغم أنها لم تعش معاركها. ليلى أمضت أعوامها المدرسية في باريس، وحين عادت إلى بيروت واستسلمت لصورتها الجديدة، وقعت في غرامها. في باريس لم تضطر مثلي إلى أن تعالج وساوسها، أن ترسم عُقداً ثم ترسمها مفكّكة. في مدرستي، كانت العقد تربط شعري وحذائي والزيّ الموحد الذي أرتديه كل يوم وجواربي البيضاء دوماً والحبال التي أعجز عن تسلّقها في حصّة الرياضة.

بين اكتشاف ليلى وفقدانها شهور قليلة، شهور لم أنتظر خلالها

معجزة، كما كنت أفعل من قبل، وما انتظرت أيضاً قيامة المدينة.
خلال هذه الشهور، نسيتُ الغربة قليلاً. عشت في قصص ليلى، وتصالحت مع أحوالي من خلالها. ليلى التي حرّرتْها تربيتها من الخطط المرسومة بإتقان لحياة فتاة ثلاثينية في بيروت، أحاطت نفسها بسلاسل الصورة النموذجية لفتاة تحبّ أن تتزوج. وكنت أحسدها على قدرتها على السفر وحدها، متى أرادت، وعلى سهولة حصولها على عمل موقّت كتدريسها اللغة الإنكليزية في مدرسة لتعليم اللغات. ليلى كانت تخجل من حريتها. وتريد أن تكون مثلي، مكبّلة بعقد لا تنتهي، مثلي ساخطة على والديها وإن لم يتدخّلا في حياتها، كما لا يتدخّل والداي في حياتي، لكنني أدّعي أنهما يخنقانني لأنهما زرعا فيّ كل هذا الخوف من المجتمع. ليلى لا تخاف الجيران إذا تأخرت في الرجوع إلى البيت ليلاً، ولا تخاف الأيام إذا تكرّرت. لا تخاف ألاّ تعرف الشعور الحقيقي بالحرية.
كانت حرّة حتى في اختيارها موتها. عرفتُها في لقاءات الكورنيش الصباحية وفي غداءين في المقهى وسهرة في الكرنتينا، والسهرة الأولى في الجبل ولقاءات المصعد وزياراتي الثلاث إلى بيتها.
وأقنعتُ نفسي بعد موتها، الذي صدمني، والذي لم أتوقّعه، بأنني لا أعرفها كي لا أحمّل نفسي جزءاً من المسؤولية وكي أستريح.
غضبتُ منها لأنها لم تخبرني بأنها تريد الموت. ولم أستطع أن أحزر أنها تريد أن تموت لأنني لم أنتبه إلى حاجاتها. ولم تكن تشكو، كانت تحكي من دون أن تشكو. وكنت أشكو دوماً حيرتي وعلاقتي المتأزمة بالمدينة. لم أعرف أن أعرفها، ولم أعرف أن أسمعها، ولم

أعرف أنها تريد أن تختار الموت. قلت لنفسي إنني لا أعرفها كي أرضي أنانيتي وأحمي نفسي من الحزن والغضب. ومنعت نفسي من أن أحزن عليها كما يجب أن أحزن عليها، وكما أحسّ بأنني أريد أن أحزن عليها. لم أبكها مرة واحدة كما يجب أن أبكيها. لكنني لا أتوقف عن التفكير فيها. غيابها زاد حقدي على بيروت.

كيف لم أفكر في وداعها وأبحث عمّن بقي من أصدقائي في بيروت كي أودعه؟

من غرفتي في صباح اليوم الرابع من أسبوعي الأخير في بيروت، مشيت إلى ليلى النائمة تحت الأرض في السوديكو، كأنني أتأخّر عن موعد يغيّر حياتي.

أمشي وأفكر فقط في أنني لم أكن يوماً حرّة. أمشي وأخطو خطوات كبيرة، أقطع مسافات لا أسعى إلى تقديرها. أمشي معانقةً بنايات كثيراً ما راقبتُها من السيارة من دون أن أتحمّس للمسها أو الاقتراب منها. أمشي بمحاذاة مبنى منحه التاريخ أجمل أحداثه، وشهيّتي مفتوحة إلى أن أشتُم السيارات، إذا أزعجتني، وشرطي السير إذا نظر إليّ باستخفاف وأنا أرمي جسمي على السيارات. أمشي ولا أحسّ بجسمي. ولا أفكر، كأنني أمشي خلال نومي أو موتي. تنشّقتُ هواء المدينة كما لم أتنشّقه مرّة. أدخلت المدينة كلّها صدري في تنهيدة واحدة.

لم أقابل ليلى، ما زلت غير مستعدّة لأسئلتي الكثيرة لها. مشيتُ بالقرب من مكانها. مشيتُ على مهل. ابتسمتُ كثيراً. مشيتُ بحنان

كأنني لم أكن قبل لحظات أشتم الطرق والسيارات وشرطي السير. ثم ندمت لأنني تركت غرفتي ولأنني لا أكفّ عن البحث عن قصص قصيرة ومواقف درامية. في الطريق إلى غرفتي لم يبتسم لي أحد ولم تقل لي امرأة عجوز إن اليوم نهار جميل وإن الشمس عادت إلى الظهور. لم ألتق وجهاً أعرفه، ورأيت أن جلوسي في بيت أهلي أفضل من بقائي في الخارج كي لا أجد نفسي الآن في مكان لا أريد فعلاً أن أكون فيه، كمقهى «مونتي كارلو» منتظرة عامر، أو كبيت كمال. أخاف إن أمضيت نهاري الجديد خارج الغرفة ألاّ أسافر. لكن لا يشدّني أحد من ذراعي ولا يطلب أحد مني البقاء.

ليلى كانت تعرف أنني أخاف الغربة. وظنّت أنني لن أجرؤ على الرحيل. كلّما حدّدتُ موعداً ابتسمت. ظهورها في حياتي كان سبب تأجيلي مشروع الحياة الجديدة، ورغبتي في أن أبدأ من الصفر وأن أولد من جديد في الغربة. ليلى قالت لي «ربما متِّ فجأة في دبي، ألم تفكري في الموت؟ أنا أفكر فيه دوماً، وأحياناً أحس بأنني لا أكفّ عن التفكير فيه، وبأنني مهووسة به. ألا تتذكرين كريم جارنا الذي كنا نلعب معه في الكاراج، قبل أن يأخذني والدي إلى باريس، ألم تعرفي أنه توفي في حادث سير في الولايات المتحدة؟».

كيف لا أعرف كريم؟ ليلى سافرت وكنا صغاراً، حتى إنني لا أكاد أذكرها. وبقي لي كريم. كان شديد الاهتمام بالتفاصيل البسيطة، بتغيير لون غرفته كل عام، بانهماكه بكتابة رسائل إلى صبية لمحها مرة واحدة حين كانت تزور «بيت ياسين» في الطبقة الأولى، ببحثه عن أصوات جميلة جديدة، عن مغنين شباب لم نكتشفهم

بعد، عن فرق موسيقية ألمانية أو إيطالية. . . كريم الذي أحبّ رائحة الليمون في الجنوب والبحر في بيروت، مات غريباً، مات فجأة وبهدوء. مات ولم يعد. مات وظلّ هناك عند الأميركيين. ظلّ غريباً حتى بعد موته. ولا أعتقد أن كريم الملآن بالحياة فكّر لحظة واحدة في موته كي يفكر في مكان موته وأين سيدفن.

أنا لم أفكر في تفاصيل موتي من قبل. أرغب في أن أموت في بيروت طبعاً، لكنني فكرت في السفر من أجل أن أعيش، من أجل حياتي. «لماذا تريدني ليلى أن أفكر في الموت؟»، قلتُ لنفسي يومذاك. ولم أفهم. لم أكن أفهمها. ولم أنتبه إلى أنها تحبّ الموت. ألهذا كانت تحبّ أن ترسم الملائكة، وقالت إنها بالملائكة التي ترسمها، تطرد شياطين الحياة الذين يعذبونها.

تعذّبني ليلى حتى قبل أن تموت. ضبطّتها ذلك اليوم، خلال إحدى زياراتي النادرة إلى بيتها، ترسم ملائكة على سقف حمامها، ملائكة بالأزرق والأبيض، وغيوماً كثيرة. ليلى كانت رسامة.

«ماذا تفعلين؟»، سألتُها.

«أرسم. الحمام، المساحة المشتركة الوحيدة التي كان أبي وأمي يلتقيان فيها. أحبّه منذ كنت صغيرة. كنت ألعب في المغطس وما زلت أجلس فيه وقتاً طويلاً. كذلك أحبّ الضوء الذي يدخل من الطاقة الصغيرة فوق. وكلّما جلست في المغطس نظرت إلى أعلى، إلى فوق، وأردت أن أخترق السقف إلى السماء، ففكّرتُ في أن أرسم سماءً فوقي. أرسم أيضاً كي أفكّر. كنت أفكّر فيك. لا

تسافري. لا أريدك أن تسافري قبلي، حين أعود أريد أن أحكي لك أخباري. يوسف لن يسمعني. عدا أنك لم تعيشي وحدك من قبل ولم تشتاقي إلى بيتك ومدينتك. أخاف أن تصلي إلى هناك وتكتشفي أنك تورّطت في مغامرة لا تشفق عليك ولا ترحمك».

«وماذا أفعل، سئمتُ انتظار المعجزة. أريد أن أحصل على الحياة التي خطّطتُ لها. وأريد أن أحسّ بأنني حرّة وبأنني لست رخيصة. لن أبقى هنا وأتزوّج من أي رجل، أبدأ القصة التي نحوكها ونخترع شخصياتها، طفلاً أو طفلين وربما ثلاثة، فقط كي نستمرّ، فتتعقّد أحداثها ثم تؤذينا وتؤذيهم. نصنع حياتين جديدتين أو ثلاثاً كي نستمرّ في صنع حياتنا. تدفعنا أنانيتنا وتعلّقنا بالحياة إلى أن نصبح ثلاثة أو أربعة. نتزوج وننجب أطفالاً كي نتعلّق بالحياة ونتخلّى عن رغبتنا الطارئة في الموت. لا ألوم الغربة على موت كريم، ولا ألوم بيروت لأنه دُفن في شيكاغو. وما الذي يجعلك متفائلة؟ سهرات الملهى في الكرنتينا حيث نرقص مع الجماعة، حيث نرفع أيدينا في الهواء كأننا نثور مع الموسيقى، كأننا نثور على الموسيقى. ألم تقولي لي أنظري إلينا كأننا نحرر القدس؟. يجب أن أسافر كي أتخلّص من هذه الضجة الفارغة في بيروت، والتي يخترقها كل هذا الموت».

تلك الليلة التي كرهتها والتي أنّبتُ ليلى بسببها على اصطحابي معها إلى حيث يسهر يوسف وأصدقاؤه. تلك الليلة لم أرقص. رقصت قليلاً ثم تفرّجت عليهم من فوق. وقفتُ على طاولة خشبية عريضة تشبه قبراً ورأيتهم محشورين في المساحة التي تضيق كل

لحظة، كانوا يتصببون عرقاً، ينظرون إلى فوق من دون أن يروا، ينظرون إلى ما لا يستطيعون رؤيته، إلى حلم أو رغبة في النهوض إلى حياة جديدة. يقفزون ويصرخون كأنهم في تظاهرة. هل يحبون الرقص إلى هذا الحد؟ وهل تستطيع ثورة أن تنطلق من ملهى ليلي؟ كأنهم أرادوا أن يوقظوا المدينة النائمة فجراً، المدينة النائمة دوماً، من ملهى في الكرنتينا. كنت معهم، وكانت ليلى معي، لا، كنت أنا مع ليلى. لم يتوقفوا عن الرقص، كأنهم يترجمون بأجسادهم كلمات أغانٍ ثورية كفروا بها خلال موتهم الذي بدأ بعد انتهاء الحرب. فالسلم لم يحرّرهم، السلم لم يحرّرني. في الرقص على أنغام أغنية تدعو إلى رفض الموت، وإن أُعيد توزيعها على أنغام موسيقى التكنو، «منرفض نحنا نموت»، رفض لرفض الموت، الذي غنّته الفنانة جوليا، وتمسّك بموت اعتدناه، موت نستطيع خلاله أن نخضع لعمليات تجميل وأن نبدع صوراً جميلة لأجسامنا الميّتة من أجل الخضوع لثقافة الموت نفسها، موت الحقيقة والأصالة والفردية. لكنهم كانوا يطالبون بالمزيد، بموسيقى أشد صخباً، موسيقى مدويّة كالانفجارات التي أحيَت حفلات طفولتهم. رقصوا هناك في الكرنتينا حيث نبتت الحرب. رقصوا مع أشباح الحرب في منطقة صناعية تفوح منها رائحة الغاز والنفايات. رأيتُهم في تلك الليلة. نظرتُ إليهم ورأيتهم. كانت ليلى مثلي تحاول أن تفهم سبب اندفاعهم إلى الذوبان مع الموسيقى، وكانت تحاول أن تذوب بدورها. كنا كلّنا نبحث عن الحياة حيث توقفت، وكنا ننتظر الحفلة الكبيرة، حفلة الحرية.

لم أكن يوماً حرّة ولم أعرف الحرية يوماً.

أوراقي كلّها جاهزة. أوراق السفر تنتظرني. يذكّرني أبي بها ويسألني «هل أنت متأكدة؟». مرة كل أسبوع يسألني «هل أنت متأكدة». هكذا هو أبي لا يتغيّر. وحين يختار جملة ما لا يغيّرها، يظلّ يستخدمها إلى أن نختلف بشدة. «هل أنت متأكدة؟»، فأهزّ رأسي، أحنيه وأقول نعم. نعم أقولها لأبي منذ أعوام. تعلّمت ألاّ أجادله وفهمتُ أنه سهل. عليّ فقط ألاّ أغيّر ما اعتاده مني. إن قلت له سأعود ليلة السبت في الواحدة، أصل في الثانية عشرة والنصف، وإن سُئلت عن المكان الذي أقصده، لا أكذب. لن يعرفه وإن كنت أعرف أنه لن يوافق على ذهابي إليه إن أخبرته عن جوّه أو عن مرتاديه. لكنه لا يسأل. لا أعرف لمَ لا يسأل. أظنّه يسألني بصوت خفيض لكنني لا أسمعه. أظنّه يسألني في قلبه. أحياناً أشفق عليه وألومه على هدوئه وعلى تعلّقه هو أيضاً بغرفة الجلوس. سعيت مرات عدة إلى أن أُفهمه أن يفقد الأمل مني، وأن يركّز على ابنته الثانية في كندا.

أوراقي جاهزة. لا أنساها. وليلى لا تفارقني. كيف لم أنتبه إلى غربتها؟ كنت مشغولة بغربتي وبسفري، بالحياة الجديدة التي أريدها. في البداية، حين استمعت إليها، استمعت فقط كي أبقى في بيروت. اتخذتُ قصصها ذرائع لتأجيل سفري، بدوت كأنني مستعدة لأن أقدّم لها الراحة والأجوبة عن أسئلة لم تسألها، أو الحلول لمشكلات حياتها. ولم أرَ في حياتها مشكلات. كنت أحسدها على شعورها بحريتها. ولم أحاول حتى أن أساعدها لأنني لم أصدّق أنها تحتاج

إلى المساعدة، وخصوصاً مساعدتي. ظننتُها تتدلّل حين كانت تغازل الموت. وقلت إنها فنانة تحب أن تعقّد حياتها. كان يجب أن أحزر أنها تحتاج إليّ أكثر من حاجتي إليها حين رأيت آثار الجروح في ذراعيها. قالت لي حين سألتها عنها: «أحب أن أوجع نفسي، أن أعاقبها». لم أصدّقها. ظننتُها تمزح، ولم أعلّق. كان عليّ أن أحزر بعدما اختفت، حتى بدأت البحث عنها، ثم عرفتُ أنها نامت ثلاثة أيام متواصلة. وكان عليّ أن أحزر أنني يجب أن أستمع إليها وأسعى إلى فهمها حين رأيتُها تخلع سترتها الجلدية السوداء وتلصق ظهرها بالكرسي ووجهها بالشمس الخريفية وتأكل بشهية. كانت تحاول أن تستدرجني إلى الحديث عنها يوم هربنا من القصص إلى المطعم المطّل على صخرة الروشة، وكان الصيف يودّع نفسه. بدت مختلفة يومذاك. كانت جائعة إلى البوح، لكنني لم أسمح لها به. كنت كعادتي أشغلها بنقّي وبالحديث عن مأساة سفري، وأنا أراها تأكل بشهية. تمسك حبة البطاطا الطويلة وتغمّسها بالحمص وتأكل من دون أن تركّز على الأكل، فتقع حبة البطاطا من فمها قبل أن تدخلها كلّها ويسقط قليل من الحمص تحت شفتها السفلى حيث لمعت حبة كريستالية في شكل دمعة. «ما هذا تحت شفتك؟»، سألتُها. «فن» ـ أجابت ـ «فن يوجع ولا يزول».

لم أكن قد رأيت ليلى تأكل من قبل، ولم أتخيّلها تأكل بهذه الطريقة. كأنها تنتقم من الطعام ومن رغبتها الدائمة في أن تكون نحيلة. «أحب أن يقال إنني نحيلة وإنني أبدو كأنني أموت من الجوع». بدت ليلى في ذلك اليوم رائعة في قميصها القطني الوردي

بحمّالتيه وبنطلون الجينز الضيق والسترة الجلدية التي لم أنسَها.

الآن حين أتذكّر جلستنا تلك، أنتبه إلى أنها لم تكن تريد الكلام على سفري. تنظر إلى البحر بسعادة وتحكي عن المدينة بحبّ وتعدني بتحسين أحوالها وبرضاها عني. «ابقي ولن تندمي، بل ستندمين إذا سافرت. كيف تستطيعين التخلّي عن منظر البحر هذا. كيف تستطيعين التخلّي عن كل هذا الغياب الجميل للانسجام الذي تحتفل به حواسك في كل لحظة». كلّما تكلّمتُ على أيامي الأخيرة في بيروت، قاطعتني لتسألني بصوت، استغربت علوّه، أسئلة لا علاقة لها بحديثنا. «إذا رميتُ هاتفي النقّال في البحر، فهل ترمين هاتفك؟. أريد أن أنسى كل الذين عرفتهم منذ أعوام، أريد أن ألغي الأسماء والأرقام والحروف والرسائل، أريد أنا أيضاً أن أولد من جديد. وفي ولادتي الجديدة، سأكون سعيدة، سأكون حتماً أسعد». تحكي عن نفسها كأنها تحكي عني. فرحتُ بها وابتسمت لها أكثر من مرة، وازداد إعجابي بها ولمتُ نفسي مرة أخرى على أنني لم أكتشفها من قبل. لكنني لم أنتبه كما يجب إلى كلامها، لم أحلّله ولم أفكر فيه. كنت مأخوذة بي. ثم قالت قبل أن نغادر المطعم: «لا بد أن يحدث أمر ما».

كيف أطردها مني؟ كيف أحبّها وأطردها مني؟ بالسفر أستطيع أن أحاربهما. بالسفر أحارب ليلى وبيروت. أسافر الأربعاء، يوم حيادي، يوم لا أكرهه ولا أحبه. ليس كالثلثاء الذي كنت أتشاءم به أيام المدرسة أو كالجمعة الذي ما زلت أتفاءل به. الأربعاء لا لون له، يوم غير ملوّن، يوم بالأبيض والأسود. قالت لي أمي إنني

ولدتُ يوم أربعاء. وصدّقتُها. يوم الأربعاء أبدأ كتابة نصي الذي أعد نفسي بأن أعتني به خلال غربتي، والذي أعرف أنه سيعتني بي.

أردت أن أبدأ نصي بسؤال أكتبه ولا أجيب عنه. ربما أجابتني ليلى عنه بطريقة ما. «ما الذي حصل لنا»؟ سؤال استعرتُه من خطيبي السابق وسيم. سؤال أجاب به عينيّ ليلة ودّعتُه. تركني وحدي في المطار. وبرغم ارتياحي لسفره وللإحساس بأنني فقدتُه إلى الأبد، فقد خفت وأحسست بأنني عارية ووحيدة، كأنني أتنبأ بفقدي وجوهاً كانت حياتي كلّها. وسيم لم يقل إننا أنهينا اللعبة وانتهينا من ادّعاء حاجة كل منا إلى الآخر، لكنني كنت أعرف أنه سيحاول فقط أن يدّعي أنه يحاول ألاّ يفقدني. بعدما طار وحطّ في مدينة غريبة وأرسل يبشّرني بجمال الطبيعة ورومنسية الجو، حاولنا أن نتواصل، أن ندّعي أننا أقوى من الظروف، لكن الرسائل الإلكترونية عذّبتني، لم أحبّها. حاولت في الأسبوع الأول، الذي تلى رحيله، أن أواظب على كتابة الإيميلات، لكنني عجزت. وكلما تحمّست لقراءة أخباره، ركضت نحو الهاتف لأتصل به. الهواتف أيضاً كرهتها. كنت أبحث عن عينيه. وعندما تعبتُ، كان قد تعب قبلي. سألني، كتب في رسالة بريدية، طالبته بها، سؤاله الذي لم أجب عنه: «هل انتهينا؟»... لم أردّ على رسالته. كنت أظن أن حياتي بدأت حين نظرت إلى عينيه، لكنني أعرف الآن، بعد أعوام من سفره، أن حياتي لم تبدأ بعد، وأن عليّ أن أبدأها في شكل ما. وكنت أؤجل بدايةً وإن لم تعجبني بداية أخرى، ألغيها وأعد نفسي ببداية «جديدة» أخرى. أعيد سؤاله مثل أسطوانة معطّلة: «ما الذي حصل؟». سأبدأ

نصي بهذا السؤال الذي حرّضني على أن أكتب. أريد أن أكتب عني. سهل جداً أن أكتب عن نفسي لأن الكتابة عني تريحني. أريد أن أكون مادة كتابتي وجزءاً من العالم الذي أصنعه لأنتمي اليه. كذلك أحتاج إلى أن أكتب عن نفسي. أريد أن أجد متعة في الكتابة عن نفسي وأحبّ نفسي من خلال الكتابة. ربما كشفتُ فيّ شخصية جديدة. أستطيع أيضاً أن أكون فتاة أخرى أردت أن أكونها. أستطيع أن أستغني عن المكان الحقيقي وأنتمي إلى مكان متخيّل.

غرفتي جاهزة دوماً لاستقبال الكلمات، أوراق مرتبة وأخرى مبعثرة، وأقلام مختلفة الأنواع والألوان، تحيط دوماً بي من أجل أن أكون مستعدّة. المكتبة في غرفتي تمتدّ منها قطعة خشبية أجلس للكتابة عليها. كنت أدرس حتى آخر الليل أيام المدرسة. في العتمة، وحين تنطفئ الكهرباء، أشدّ بأصابعي على الخشب الناعم، أشدّ على الأوراق كي لا تنزلق، الخشب ناعم جداً، كأنه زجاج، لكنه متين وناعم. ما زالت المكتبة، كما هي، منذ اشترتها لي أمي حين كنت في التاسعة من عمري. أنا أنتظر الكتابة منذ أعوام، منذ بدأت علاقتي ببيروت تتغيّر ثم تسوء، منذ بدأتُ أفكّر فيها كأنها شخص منفصل عني، شخص مزاجي ومتقلّب لا يحبني وربّما أحبني أحياناً. ولم أفكّر فيها، كانت هنا دوماً أو هناك. لم أكن أراها، أراها من دون أن أراها ثم انفصلتْ عني، لتصبح المكان الذي سأتركه بعد ثلاثة أيام.

تحرسني الأوراق والأقلام حين أخاف أن يهجم عليّ شيطان الملل. بدأت أعرّف نفسي شيئاً فشيئاً إلى الكلمات وأسعى إلى أن

أتفق مع لحظات الكتابة. أريد أن أجد بين الكلمات وفي عالمها مدينة تتسع لي ولأعوام الغربة الآتية. الأربعاء يوم السفر، أبدأ كتابة نصي. إذا استطعت أن أكتب، فسأحبّ يوم الأربعاء، وسيصبح الأربعاء يومي المفضّل. ألصقتُ رأسي بحافة السرير، تمسّكتُ بالفراش وكأنني أستعدّ لإقلاعه.

أصبحُ مثل أمي. لا أغادر البيت. من غرفتي أشتاق إلى الحياة العادية. أشتاق إليهم جميعاً، أصدقائي الذين فقدتهم وأعدائي الذين سمّيتُهم أعدائي، وجوه لا أستطيع أن أتخلّص منها لأشخاص، منذ كنت مراهقة، عرفتهم ولم يعترفوا بي ولم يعرفوني. أشتاق إلى أصدقائي الذين فقدتهم، والذين أوشك أن أفقدهم. أشتاق إلى وسيم وعامر وليلى، إليهم كلّهم.

أتصل بليلى، كأنها ما زالت هنا. ما زلت أحفظ رقم هاتف بيتها. لن أنساه وإن ركّزت على نسيانه. السفر نفسه لن ينسيني ذاك الرقم. لو كانت هنا واتصلتُ بها لاكتفيتُ بالكلام. أشكو لها سجني وعجزي عن مغادرته. «ابقي في السرير، ليس ثمة ما هو أجمل من الكسل، من النوم، النوم العميق»، قالتْ قبل أشهر قليلة. لم تأتِ يومذاك. كنت في البيت واتصلتُ بها ووعدَتْني بأن تصعد إليّ قبل أن تخرج للسهر مع يوسف. لكنها لم تظهر. ربما منعَها من زيارتي كي لا تفلسف الحياة وتعقّدها. ربما وصل مبكراً فقط كي لا تصعد إليّ ويتغيّر مزاجها، «فتتعكّر» السهرة، كما قال عندما تحدّثنا عن الشعر أو صفوف تاريخ الفن التي تنوي متابعتها. وهي تسمع كلامه وتردّ عليه. تصبح امرأة أخرى حين يستخدم لدى محادثتها لغة

الأمر. «لا ترتدي هذا الفستان مرة أخرى. فخذاك في الهواء، كيف خرجتِ هكذا؟». جملة كهذه قد تفرح ليلى. نزلنا من السيارة بعدما أوصلنا يوسف إلى المقهى حيث انتظرنا كمال.

«ما الذي جعلني أعرّفها إلى كمال؟». كنت قد أخبرتُه الكثير عنها. أخبرتُه أنها اتصلت بي في العاشرة ليلاً وطلبت مني أن أقلّها في السابعة صباحاً إلى المطار. وفي الصباح حين اتصلتُ بها لأتاكد أنها جاهزة، لم تردّ على اتصالي. اتصلت ثلاث مرات إلى أن ردّت. «تأخرنا، يجب أن ننطلق، ألم تصحي بعد». «ننطلق إلى أين؟» قالت.. «إيه، فهمت، لا، غيّرتُ رأيي. كنت أريد أن ألحق التسجيل في صف الرسم الزيتي في المعهد في باريس، قلت لنفسي بدلاً من أن أضيّع وقتي. أغضبني يوسف وأحسستُ بأنني سئمت معاركنا. لكنني غيّرتُ رأيي الآن. أستطيع دوماً أن أذهب إلى روما أو إلى مدرسة الرسم والتصميم في توسكانا. نتكلم لاحقاً. يي... Sorry، صحوتِ باكراً من أجلي، شكراً ملاكي، وتريدين أن تسافري وتتركيني».

لم أرد عليها. وحرتُ في تعريف ردّ فعلي. هل كان استغراباً أم غضباً أم شفقة أم إعجاباً؟ لا أعرف، لكن حيرتي كانت تقرّبني منها، وتجعل حيرتي اليومية شبه طبيعية ومفهومة ومبرّرة. لا أعرف. لكنني كنت سعيدة بصداقتها وفخورة بها أيضاً. وربما لهذا قرّرت أن أخبر كمال عنها، وكي يظلّ بيننا، أنا وكمال، كلام.

قال لي «إنها مجنونة»، حين أخبرته، وضحك. صدره الذي يتحرّك حين يضحك يغريني بالنوم عليه. أتخيّله يستمتع بسيجارته

وينظر إلى ساعته عشرين مرة خلال اتصالي به. كمال عرّفته إلى ليلى كي أؤجل سفري أيضاً، كي أحْبك لأيامي قصة أبطالها، كما أحبّهم، يحبّون الحياة. كمال أيضاً، مثل ليلى، يعرف الموت. يصل كل مرة إلى عتبته ويعود. يخونه قلبه لحظات ثم يخونه حين تستقيم نبضاته. لا يأكل، لا أظنّه يأكل. لا ينام، وأراه دوماً حاملاً كأساً أو فنجان قهوة. قلّما رأى كمال نور الشمس وقلّما مشى تحتها. هو أيضاً يحبّ أن يمكث في البيت. وبدلاً من التلفزيون، تحميه الكتب. وبدلاً من العالم الخارجي الآني، يختار العالم الذي يريده بين عوالم وأزمان كثيرة. لا يخاف الماضي ولا البقاء فيه، بل أحسّ بأنه يقرف من الحاضر دوماً، لكنه لا يهجوه ولا يشتمه مثلي. إلا أنني أخجل من أن أتلفظّ بشتيمة على مسمع كمال، أخجل أحياناً من أن أتكلّم أمامه. ليلى لم تخجل من الكلام أمامه بل لم تصمت حين التقينا نحن الثلاثة. أردت أن أغري كمال بصداقتي لليلى، وأردت أن أثبت لليلى أنني أحاول أن أتشبّث بقصصي في بيروت، وأنني، أنا أيضاً، أستطيع أن أعيش قصصاً وأستطيع أن أحصل عليها. وربما أحسست بأن ثمة ما يجمع بينهما، ربما علاقتهما بالمدينة التي يتفهمانها دوماً، يشتمانها ثم يتعاملان معها، كأنهما لا يعيشان فيها، وكأنهما في الوقت نفسه لن يفرّطا بالعيش فيها.

من أجل ألاّ نصمت أنا وكمال خلال لقاءاتنا القليلة، عرّفتُه إلى ليلى. استخدمتُها مرة جديدة، كي تكون حياتي غنية مثل حياتها. لكن ليلى لم تصطدم بضرورة الهجرة، كانت لا تخاف بيروت، وإن انتقدتها فهي لا تنكر جمال العيش فيها.

قبل شهور قليلة جمعتهما في عيد ميلادي. في مقهاي جمعتهما. كان فستان ليلى الرمادي ينفتح من الأمام، وشتّتت ساقاها تركيز كمال الذي أعرف أنه يصبح أكثر رصانة حين ينسجم في حديث ما، وربما في جلسة ما. يدّعي كمال أيضاً عدم المبالاة بما يفجّر اهتمامه. عرفت أنه انسجم معها واستمع بشغف إليها، لكنه بدا جدياً إلى أبعد الحدود، وجامداً إلى أبعد الحدود، وإن بدت ابتسامته ألطف من المعتاد. فرحتُ بابتسامته تلك الليلة ثم صحوتُ من فرحتي. كنت فقط أبتكر لنا قصّة، أردت أن يكون بيننا من نتحدّث عنه ونحلّله كأننا نحلّل المدينة.

قبل شهور قليلة لم أكن أفكر في ليلى كما أفكر فيها الآن. وأهتمّ بالسؤال عن كمال، وبرأيه فيّ وفي علاقته بي وبصورتي أمامه، وبصوته وصحوه ونومه. كان مكتملاً الدور الذي أردتُه له، من دون أن يعرف، ومن دون أن أخبره عنه. وكنت أصدّق حين أفكّر فيه كما أردته أن يكون، لا كما أعرفه على حقيقته. أفكر في كمال أشدّ ليناً من كمال الحقيقي، فقط كي يكون لي، كي يقبل أن يكون لي وكي أقبل به. وكنت أفكر فيه كي لا أسافر، ولا أتصل به كي أسافر. ولا أخبره عمّا حدث لليلى كي أسافر. ينام كمال الآن. أعرف أوقات نومه. ينام الذين أحببتهم كلّهم نهاراً ويصحون ليلاً كمصّاصي الدماء. أفكر في نومه الذي ربّما تحوّل موتاً في أية لحظة. لم أرَه نائماً. لكنني عانقتُ شعره المجنون، طرحت كفّي على رأسه : كأنني أنفّذ ما سبق أن رأيته في منام. وكنا في الشارع. حين أفكر في تلك اللحظة أسمع أصوات السيارات وأشتّم بسعادة

رائحة الهواء الملوّث. حين تركتْ كفّي شعره، تركتُه وغادرتُ البقعة الإسفلتية التي التصقتُ بها إلى أن ابتسم لي. ابتسمتُ وركضت إلى سيارتي. كان النهار في أوله وكنت سعيدة. وبرغم شغفي به، كنت أنسى قصصه بعدما أُلحّ عليه بأن يحكيها لي. أستمتع بطريقة سرده، أتعرّف على مهل إلى وجهه، إلى كل جزء منه ثم أضيع في صوته. أظنني مغرمة بصوته فقط. وحين كان يتحدّث طويلاً عن ضرورة أن أفهم سبب انجذابي إليه أو «سرّ» انجذابي إليه، كما كان يحلو له أن يقول، كنت أفكّر في صوته. ثم أطمس فكرتي لأنني أخجل منها. وأخجل من أن أقول له إنني أحسّ بأن صوته يعكس ماضيه الذي يغيظني، والذي أتوق إلى معرفته، وإن طبقات صوته تحكي آثار تجاربه السابقة فيه، وتحكي الحزن والسعادة معاً. أحسّ من صوته بأنه غني النفس ودافئ وحزين وجبار. وحين يتكلّم أضطرب، لا من كلماته نفسها بل من صوته. لكنني أكون سعيدة باضطرابي وأحسّ بأنني أصبحت مختلفة، أكثر شفافية وشأناً.

كنت أزور كمال بين الحين والآخر. أزوره من دون أن أنوي زيارته، غصباً عني ومن دون أن أستطيع المقاومة. أتصل به لأعرف هل هو قادر على استقبالي. من دون أن أفكر، أجرّ نفسي إليه. أجد نفسي مرة أخرى أمام باب خشبي مغلق، أقف أمامه مع أسئلتي العديدة التي لا أوجهها لنفسي. فأسرع في أن يمسّ إصبعي الجرس. المشهد كلّه أعيشه خلال ثوانٍ بطيئة. يفتح كمال، فأدخل سريعاً. أحبّ حين أجلس قبالته أن نسمع إيقاعات المطر. نجلس بين الكتب ونصمت معظم الوقت. ودوماً بين صمتي وصمته أسأل

نفسي: «ما الذي أفعله هنا؟». لكنني لا أغادر ولا أكفّ عن الاتصال به ولا أجرؤ أمامه على أن ألوم أحداً على فشلي. وأنا فاشلة في نظر كمال، وخصوصاً أنني لم أكمل دراستي لأنال شهادة الماجستير على الأقل، ولا أقرأ كتاباً كل يوم. وأنا أيضاً مدمنة تلفزيون وفاشلة حتى في إيجاد رجل كما تفعل تلميذاته في الجامعة. لا يقبل كمال باللوم. أفترض أنه لا يقبل به. فهمت أنه يجيد جلد النفس ولا يقبل بأعذارها ولا يقبل بلوم الظروف أو الأمكنة. «الأمكنة لا تصنعنا، نحن نصنعها». أتخيّله يُسمعني هذه الجملة. أستطيع أيضاً أن أتخيّل صمته وأنا سجينة غرفتي وأنا أعادي «الخارج» وأنا «في الداخل» في غرفتي. قبل أربعة أيام من سفري أفكّر في كمال كي لا أفكّر في ليلى. ولا أستطيع إلا أن أفكّر فيها. فهل كان عليّ أن أجمعهما؟ لعلّه قرأ عن غياب ليلى في الصحف أو سمع عنه من صديق، لكنني لم أتصل لأخبره. ولم أسمع منه بعد. وأخاف عندما أفكّر في السفر من دون أن أودّعه. أخاف أن أفقده إلى الأبد.

حين عاد كمال إلى بيروت، بعدما أمضى سبعة عشر عاماً في كندا، تركته زوجته. تركته لي. وحين قررتُ أن أحبّه قليلاً كان يعيش وحيداً في شقة صغيرة قريبة من نادي «تمارين» حيث كنت أتمرّن على «الحركات السويدية» في شارع عبد الوهاب الإنكليزي في بيروت. زوجته هربت مع صديقه، لكنه لم يفقد ثقته بسحره الذي لا أعرف مصدره. فكمال قبيح وقاس. حين رأيته للمرة الأولى، أدرت ظهري له. كان يجلس على الكرسي خلفي وكنت أراقب مي المشغولة بأوراقها، وأنتظر أن تنتهي منها كي نغادر مبنى

كلية العلوم الاجتماعية. أحسست بأنه يحدّق إلى خصري، كان صامتاً يُصدر بين حين وآخر بحّات كأنه يؤكّد وجوده في الغرفة الواسعة. وقفتُ قبالة آلة التصوير إلى جانب مي، تلميذته، التي انهمكت بنسخ المواد وتصوير صفحات من كتب زملائها ودفاترهم. هناك فرحتُ به. وصرنا نلتقي. لقاءاتنا الأولى تمّت في المقهى. تبادلنا القصص. وكانت قصصه دوماً أجمل وأشدّ غرابة. يتحوّل معلّماً مشغولاً بالعبر حين يلاحظ شغفي بكلامه. أبتسم، فيتوقف عن الكلام. ويسألني أسئلة كثيرة لا أجيب عنها. ثم أصبحنا نلتقي في بيته. لم أنتبه إلى كبر سنه إلا عندما حاول أن يضمّني، فجأة رأيت بطنه والشعيرات البيض التي تتلصّص عليّ من تحت قمصانه ويديه البيضاوين وأصابعه التي تصبح رفيعة عند الأظفار وتمتلئ فجأة بالأنوثة. كنت أخطّط بجرأة لعدم الاكتفاء بملامسة شعره وللتعبير له عن مللي وتوقي إلى الحنان، لكنني اكتشفت نفسي خجولة جداً ومنغلقة إلى حد صعقني. واضطررت مرة أخرى إلى أن أواجه عقَدي. فأنا أريد قصصاً ولحظات مقتبسة من أفلام وروايات، لكنني لا أستطيع أن أردع نفسي عن الخوف من نقد أمي الموجع مثلاً ومن حديثها عن فشلي في أن أتزوج. تصير أمي الجيران والأقرباء ورجال الدين والأصحاب والمعارف. تصيرهم كلّهم. تصير أمي الألسنة التي تلسعني بنارها كل لحظة لأنني لم أجد رجلاً بعد، ولأنني أفكر في السفر وحدي. خوفاً من أمي قاومت أكثر من مرة حاجتي الغامضة إلى زيارة كمال وحاولت أن أكتفي بأحاديثنا الهاتفية.

كمال أنساني السفر حين بدأت أفكر جدياً فيه، خلال فترة

صداقتنا أنا وليلى، حين كنت أستطيع بعدُ، أن أدلّل نفسي وأقول إنني سأسافر بينما أتمنى البقاء. أخاف أن أكون قد استخدمت كمال أيضاً كي أبقى. كنت أقصد شقّته خوفاً من البقاء في غرفتي. ربما كنت أؤجل ما أعيشه الآن. لكنني كنت أقلّ نضجاً وإحساساً بالمرارة. قبل شهرين فقط كنت أقلّ نضجاً. لم أخبر كمال عن موعد سفري الأخير والأكيد. فهو لا يتصل بي. كنت أنا أتصل به. أضع يدي على قلبي وأمسك بهاتفي النقّال. وأغمض عيني بعدما أتأكد أن اسمه مكتوب على الشاشة. أضغط الزرّ الأخضر وعيناي مغمضتان، وأفتحهما عندما أسمع صوته. أعود إلى صوته الذي أرى فيه وجهه والحروف التي ينطق بها والجمل التي تؤلّفها وأفكاره والنقاط فوق الحروف وإلى جانبها. أراه في صوته، فأفتح عينيّ. وأشتاق إلى أن أراه قبالتي وألمسه. أطلب منه موعداً. أعرف أنه مستعد دوماً لرؤيتي و«لمساعدتي» كما يقول. ثمة مسافة بيننا يحاول كمال دوماً أن يحافظ عليها.

لم نكن نمشي معاً في الشارع ولم نجلس في المقهى إلا في لقاءاتنا الأولى. خجلت منه حين جلس قبالتي. لكنني لم أصمت. تكلّمت كثيراً، عن كل شيء. السيارات والطقس والشال الوردي الذي لففتُه حول رقبتي والروايات البوليسية التي كنت أقرأها غصباً عني في مكتبة المدرسة. المكتبة دوماً باردة حتى في الشهر الأخير من السنة الدراسية. في حزيران كانت دوماً باردة. أحضن نفسي عند دخولها وأبحث عن الضوء. فالشمس لا تصل إليها. ورائحة «العفن» مع رائحة الأوراق والكتب القديمة تدعمان إحساسي بأنني انتقلت

إلى زمن آخر أو دخلت إحدى الروايات. ثم أتعثّر بعصا الراهبة العجوز، دوماً أتعثّر بعصاها، لكنها لا تبتسم، فأعتذر إليها بصوت خفيض وأحلم بالهرب إلى أن تنتهي الحصة. قلّما حصلت على إحدى قصص الحب، قصص باربرا كارتلاند أو دانيال ستيل، دوماً أقرأ قصص الرعب كأن الحرب لم تكفني. كأنني لم أحلم يوماً بالكلاب التي كنا نسمع نباحها ليلاً ونسمع عنها قصصاً مخيفة، كلاب وسط المدينة، كيف نسيتها؟ كأنها ليست المنطقة نفسها التي أجلس فيها الآن لأشتمّ رائحة النرجيلة وآكل المناقيش على الصاج أو «الآيس كريم».

لا نذهب أنا وكمال معاً إلى صالات السينما أو المسارح، ولا أعرف أصدقاءه ولا يعرف أحداً من أصدقائي إلا ليلى. لم أره في الشمس إلا مرتين أو ثلاثاً. وكنت ألتقيه مساءً. ربما لن أعرفه إن جلسنا مع مجموعة، لن أعرفه في الجامعة حيث يدرّس، وفي الصف بين تلاميذه. أعرفه كما أريد أن أعرفه، وكما يريدني هو أن أعرفه. هكذا لا أعيش في قلب حياته ولا يعيش في قلب حياتي. هكذا أعيش قصصي ناقصة. أخبرته عن مكتبة المدرسة وحصّة الموسيقى، فضحك. دوماً أُضحكه، وهو يهتمّ بقصصي تلك أكثر من اهتمامه بقصتي الناقصة معه. وهو لا يهتمّ بها، فقط لا يجرحني. لا يسأل عني ولا يقوم بأية مبادرة تقرّبه مني. لكنه يستسلم لرغبتي في زيارته. وربما لا يفكر فيّ البتة، لكنه لا يجرحني. لا يحكي لي عن صديقته إن كانت له صديقة، أو عن أية امرأة أخرى. وحين أسأله عن الحب، يعود إلى القصص التي عاشها

قبل أن أولد أو حين كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري. أضحك عليه عندئذٍ. وأعرف أنني أعجبه. أظنني أعجبته منذ رآني مع مي في الجامعة. أعجبه قلقي الثلاثيني وترجّحي بين الحاجة إلى التحرّر وإلى أن يقبل بي الآخرون في الوقت نفسه. فلم أكن يوماً حرّة. اهتممت دوماً بأن أكون كما يريدني الآخرون. أخضع دوماً للأفكار التي زُرعت فيّ وأخاف أن أُنبذ. أخاف برغم أني شبه منبوذة. ربما حرّرني السفر من حاجتي إلى الآخرين ومن البحث عن بيروت وعن مكاني فيها.

وحدي في الغربة لن أكلّم أحداً، لن أسأل أحداً رأيه، ولن أبالي برأي أحد. في شقّة ضيقة غريبة أطالب بحريتي ولا أسأل عنها شوارع مدينتي وأنسى ما يقوله الآخرون عني.

ارتحت لفكرة الشقّة الضيقة. بدلاً من غرفتي المقفلة عليّ دوماً، أعيش وحدي في شقّة. لا أشفق على والديّ ولا يشفقان عليّ. لا أغضب منهما ولا يغضبان مني. ولا أحسّ بالذنب لأنني لا أجلس معهما ولا أتحدّث معهما ولا أسألهما عن صحتهما ولا عن سبب ملازمتهما غرفة الجلوس. ولا أحاول أن أصحبهما إلى كورنيش المنارة. وإذا فعلت، فلن يقبلا بمغادرة البيت. ستتذرّع أمي بالشمس وبرائحة البحر الكريهة، وأبي لن يفتح فمه. أراه يحرّك حاجبيه من وراء الجريدة التي تظلّ دوماً مفتوحة ويظلّ وجهه وراءها. لم أرَه يوماً يقرأ الصفحة الأولى أو الصفحة الأخيرة. دوماً أراه مختبئاً وراء الصحيفة، ينام وراءها ويأكل وراءها المكسّرات الممنوعة عنه من دون أن تنتبه أمي التي يشاهد معها برنامجاً تلفزيونياً

بعد أن يقلقها بالحديث عن سخافته ويتّهم ذوقها بالانحطاط. وراء الجريدة يستطيع أيضاً أن يدّعي حاجته إلى الصمت وأنه منهمك بالقراءة وتحليل الأوضاع السياسية، فلا يبادلها الحديث عن سيارة ابن عمه الجديدة او عن تسريحة زوجته التي لا «تخجل من سنّها».

قاسٍ كمال. هل يمكن أن يكون قد عرف ما حلّ بليلى؟ هل عرف ولم يتصّل بي؟ أظنّه لم يعرف. يظلّ كمال غائباً عن الدنيا. يظلّ غائباً. لا يشغّل التلفزيون ولا يحبّ الكومبيوتر ولا رسائله الالكترونية ولا يقبل من الراديو إلا الأغاني. لا يقبل منه الكلام وربما لا يقرأ في الصحف أسماء الأموات وترجماتهم. قرأتُ خبر وفاة ليلى ونعيها كل يوم. قرأت اسمها واسم والدها ووالدتها وعنوان البيت والكنيسة كأنني أقرأ عن اسم غريب عني، اسم لم أعرفه. قرأته كي أصدّق ولم أصدّق. كما لم أصدّق جملة كمال حين قال عن ليلى بعد اجتماعنا: «تشبه عارضة أزياء نيويوركية». أعجبتني جملة كمال. «لستَ غائباً تماماً» قلتُ له. «لا بد أنك تتفرّج على محطة «فاشن تي.في» بين الحين والآخر». وقلتُ له: «ليلى رسامة أيضاً. ليلى شفافة، تشبه مدام بوفاري في رواية فلوبير، لذيذة مغوية ينطق وجهها بشغف أحاول أن أفهمه وأعرفه وأستولي على بعضه كي أشبهها أكثر».

ـ «لكنك تشبهينها كثيراً. ليلى مثلك واقعية وحالمة في الوقت نفسه ويائسة أيضاً، مثلك ليلى تنتظر حدوث معجزة».

أعجبني كلام كمال، يعجبني كلامه دوماً. أجنّ به وأعشقه. ناضج كمال، يسهل عليه أن يفهم. أحتاج إلى عمره ونضوجه

وخبرته. أحتاج إلى قسوته أيضاً وحزمه وأبوّته. وَعَدتُ نفسي قبل السفر بأن أودّعه. تنتظرني زيارات كثيرة وحفلات وداعية كثيرة وواجبات عليّ أن أتمّمها. لكنني أصير مثل أمي ولا أغادر غرفتي ولا أطفئ جهاز التلفزيون، أراقب المدينة من ورائه. ما عساي أن أفعل لولا التلفزيون؟ ينقل إليّ التلفزيون حياة لا أستطيع أن أعيشها، وأحياناً كثيرة، حين أمدّد جسمي على السرير من دون أن أغمض عينيّ، حين أحدّق إلى بياض السقف حتى أنسى اسمي، يردّ التلفزيون إليّ الحياة. ويعدني أيضاً بحياة جديدة. كل يوم يعدني بحياة مختلفة. أحبّه ولا أستطيع أن أستغني عنه. أمتصّ ألوانه كلّها، أقبل بكل ما يقدّمه إليّ ولا أبدي استياءً أو تعجباً أو رغبة في الهروب. أظلّ في وجهه. أحبّه. أمنحه عينيّ.

حتى المعارك الحقيقة، بأسلحتها وأدواتها وأشخاصها الذين يشبهون الدمى، أنساق إلى متابعتها. باتت جزءاً من اللعبة وبات ينقلها إليّ من مدن العالم السيئة الحظ. أشاهدها برغم خوفي الغريب من العنف، أنا التي ولدتُ في بيروت وفرحتُ بوقوع سنّي الأولى بعد دويّ انفجار وقبل سقوط صاروخ. استسلمتُ. قبلت بشروط اللعبة التلفزيونية كلّها، وأصبحت كل يوم أشكر العلبة الحديدية ـ الزجاجية وأستأذنها قبل مغادرتي الغرفة ودخول الحمام.

لا أستغني عن التلفزيون. في الغربة أيضاً لن أستغني عنه. أفكّر دوماً في احتمال أن تحدث المعجزة خلال غربتي وأن تنهض المدينة مطالبة بعودتي. وحده التلفزيون يستطيع أن ينقل إليّ بعض أخبارها.

يفتح لي التلفزيون دوماً نافذة صغيرة على أمل أو وهم، من دون أن أهتمّ بالفرق بينهما.

في بيت كمال، لم أرَ تلفزيوناً. سألته عن تلفزيونه، فقال إنه في غرفته. خفت أن يسألني هل أريد متابعة برنامج ما. لكنه لم يسأل. وشرح لي أنه لا يشغّله إلا إذا كان يريد التوقّف عن التفكير، وأنه لا يشغل نفسه بسخافات كل يوم. بحثت في بيته عما يدّلني عليه أو على أهمّ محطات حياته. لا أعرف عن حياة الذين أحبهم أكثر مما يودّون هم أن أعرف، أكثر مما يسمحون لي بأن أعرف عنهم. كمال لا أعرف ابنه مثلاً، لا أعرف ماضيه. لا أعرف قصصاً ومشاهد عن حياته في الغربة. أخاف سؤاله عن أيامه الأولى في كندا كي لا أسمع منه مرة جديدة ادّعاءه أنني أحبّ أن أسمع عن الأيام الموجعة لأنني أحبّ دور الضحية. أحب أن أراه يؤدّى وأن أؤدّيه. أفترض أنه تعذّب وأنه لا يحبّ أن يتكلّم على أيام عذّبته. أعرف أنه أمضى هناك سبعة عشر عاماً لم تلغِ إحساسه بالغربة. لكن كمال يبدو لي غريباً أيضاً في بيروت. الإحساس بالأمان الذي يقدّمه البلد الجديد، والذي يعجز أحياناً البلد الأصلي عن تقديمه، لا يلغي لحظة واحدة الإحساس بالغربة.

غدوتُ أحسّ بالغربة خارج غرفتي، في بيت أهلي وفي الحي وبين أهل المدينة. وكلّما تقدّمت في السن، من دون أن أؤسس عائلة، ازداد إحساسي بالغربة، وأخذ يتعقّد أيضاً ويتشربك حين أحسّ بأنني أريد أن أكون مثل الآخرين، واحدة منهم، أريدهم أن يقبلوني من دون أسئلة أو شروط.

عامر أيضاً، بين الثلاثة الذين ربما أحببتهم، لم أعرف عنه إلا ما أراد أن ينقله إليّ. أحسّ أحياناً كثيرة بأنه يكذب، وأعرف أنه يحبّ أن يكذب وأن يخترع القصص كي يحرّك يديه في وجهي ويوقظ حماستي أيضاً. عامر لم أرَه مع عائلته ولا أعرف اسم أمه. ولم أرَه مع غيري. كنت أراقبه من بعيد قبل أن أتعرّف إليه حين كان مهتمّاً بالصحافية الصغيرة. للمثال، لم يكن عامر يحبّ أن نجلس، أنا وهو، مع أصدقائه. كان يتذرّع دوماً باجتماعات عليه أن يحضرها إذا انضم إلينا في المقهى أحد معارفه. كان يمتعني الاستماع إليه وتمتعني أخباره ونظرياته التي كانت، وخصوصاً في المدة الأخيرة، تزيد غربتي ونفور الآخرين مني قبل أن أختار الغربة. مع عامر أدرك أنني منبوذة، والمشكلة تكمن في أنني أبالي بهؤلاء الذين ينبذونني، ليس لأنني أهتمّ برأيهم أو أحترمه أو أحترمهم بل لأنني وجدت نفسي هكذا. كبرت ووجدت نفسي هكذا. هكذا وجدت نفسي في الثالثة والثلاثين. لم أصنع عمري وحدي. صنعوه هم معي، هم أهلي، سكان المدينة.

سحرني التلفزيون في غرفتي. أجلس قبالته طوال الوقت. التلفزيون في غرفتي رمادي اللون. لم أغيّره منذ أتممتُ دراستي الجامعية. كنت وحدي حين اشتريته. ولم أفكر في أننا سنصبح صديقين إلى هذا الحد، وأنه سيصبح خلال أيام طويلة كلّ حياتي. وجوده أساسي في غرفتي. سريري والمرآة والأريكة والخزانة وأشيائي كلّها موزّعة حوله. تلفزيوني موجود في صدر غرفتي. أجلس على حافة سريري وأقرّب وجهي منه. أسمعه وحدي وأظلّ

مستعدّة لسماعه. أشكو له من دون أن أتكلّم. ويفهم على عينيّ الملتصقتين به. فيقدّم لي دوماً ما يجذبهما حتى يضيع الضياع فيهما. في التلفزيون، الفيلم الذي أشاهده أيضاً رمادي. الشوارع أيضاً والجدران والكلام الطالع من أفواه الممثلين ووجوهم وعيونهم أيضاً رمادية. عيون من خمسينيات القرن العشرين، من الزمن الذي كثيراً ما حلمتُ بالعيش فيه. فكّرت دوماً في أنني لو عشت في خمسينيات القرن العشرين، لأحسست بالسعادة، سعادة الوهم. الواقع الآن واقعي جداً ولا يسمح بأن أعيش أكثر من حياة أو حتى حياة واحدة. الفيلم العائدة أحداثه إلى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات يشدّني. ضيّعتني الألوان الرمادية بتدرّجاتها، بين جسم التلفزيون وألوان الشوارع في الفيلم والوجوه وصوت الممثل ونظاراته لم أرَ إلا اللون الرمادي. أتمنى لو أنني ولدت أواخر الأربعينيات، وكنت صبية في الستينيات وأوائل السبعينيات، ولو أنني سافرت في منتصف السبعينيات إلى فرنسا وبقيتُ هناك. سيناريو رائع لحياة رائعة. اقتربتُ من التلفزيون، ورأيت سيارة البطل تدخل غرفتي.

أنا أيضاً كنت في السيارة حين أخبروني. لم أحزن كما كان عليّ أن أحزن. لم ترتطم سيارتي بجدار أو شجرة. كنت في طريقي إلى بيروت. كنت سريعاً أنحدر إليها عبر الطريق الجبلية. أحاول وأنا أقود، أن أقرأ ما كُتب على جدران البيوت وحافات الطرق. ولا أغضب. أضحك أحياناً. جمل الحب كانت تطلّ من بين العبارات السياسية المضمون والمستفزّة في معظمها. «بحبّك أكثر من أمك» أضحكتني يومذاك قبل أن يقطع ضحكتي رنين الهاتف. تسلّيت في

حفلة الفطور الجبلية التي دعتْ إليها مي، ولم أخفِ عنها أنني تسلّيت. وابتسمت وأنا أودّعها. تردّدت قبل صعودي إليها. هي تعرف موقفي من المناسبات التي تقرّرها مصالح أو واجبات اجتماعية. تسلّيت ولم أُربك نفسي بمحاولة فهم قدرة مي على الابتسام لكل هذه الوجوه في أي وقت من أوقات النهار، وخصوصاً الصباح. لم أحزر من رنين الهاتف أن الخبر الآتي منه سيغيّرني. لم أحسّ. فقدتُ الحاسّة السادسة التي كنت أدّعي امتلاكها. في ذلك اليوم، كنت مرتاحة وشبه سعيدة أيضاً. وكنت قد أجّلت حديث السفر أياماً، محاولة أن أستعيد حياتي بتفاصيلها القديمة، فقط كي أجرّب إن كنت أستطيع أن أتابعها من حيث تركتُها، ومن حيث قررتُ أن أقطعها لأبدأ من جديد في مكان آخر. ثم أخبروني. لم أحزن كما كان عليّ أن أحزن. وتركتُ السيارة إلى غرفتها. نزلتُ منها إلى غرفتها. لا أذكر كيف نزلت منها، كأنني دخلت غرفتها بسيارتي، كأنني اختفيت ثم وجدت نفسي في غرفتها. أجّلت أسئلتي واستغرابي وأردت أن أركّز على الحزن، لكنني لم أستطع. كانت الأسئلة أقوى مني. أردت أن أستنتج أنني لم أكن أعرف ليلى كي استريح. الصدمة جعلتني أحسّ بأننا نمثّل، وبأنها تؤدّي في التمثيلية دور البطولة. لم أعِ أن ما يحدث حقيقي، وكان التمثيل على أعلى مستوى. الممثلون كانوا بارعين، أمها وخالتها ويوسف ووجوه لم أعرفها، ربما كانت للكومبارس. المكان يشبه بيت البطلة الحقيقي، وديكور غرفتها لم يتغيّر.

في غرفتها كان الفستان الأبيض الضيّق لا يزال معلّقاً على باب

الخزانة. منذ أسابيع ربما، كانت تفتح الخزانة وتقفلها ويرتجف الفستان من دون أن تغيّر مكانه. والأقمشة الملوّنة كانت لا تزال ممدّدة على الأرض، قمصان وأوشحة وأقمشة للزينة. الأرض لا تزال من الخشب البني والمرآة مزيّنة بلمبات موزّعة على حافّتيها. وعلب المكياج ما زالت منثورة أمامها. والملابس التي ارتدتْها وخلعتْها مئة مرة قبل أن تقرّر ما سترتديه ما زالت على الأريكة الواسعة. «لا أحبّ هذه الأريكة، كلّما جلستُ غرقتُ فيها وصَعُب عليّ النهوض»، قلتُ لها في زيارتي الأخيرة. «سأطهو اليوم ليوسف وأدعوه إلى تناول العشاء هنا. ربما أتى وربما فهم كلامي بعيداً عن ضجة رفاقه»، أجابتني.

السرير غير مرتّب. وشكل جسمها لا يزال منحوتاً على اللحاف. كانت تلتفّ على نفسها حين تنام. لم أحزر أنها كانت خائفة. ويسهل أن أستنتج أنني لم أكن أعرفها. وراء الوسادة، على الخشبة، التي تصنع رأس السرير، التصقتْ أوراق صفر قرأتُ على إحداها لائحة الأمور التي كانت تنوي إنجازها. بالانكليزية كتبت: غداً أتصل بـ: «بي».

كدت أن أجنّ. لماذا تقرّر الاتصال بي قبل موتها؟ ولماذا تخطّط للاتصال بي؟ ظننتها قريبة مني، لكنها لم تخبرني أنها تريد الموت. وربما كنت أستطيع أن أعرف أنها تريد الموت، لكنني لم أشأ أن أراها تموت. لم أكن أعرفها إذنْ. ولم أحزن كما كان عليّ أن أحزن. لم أرثِها، لم أكتب لها ولم أسألها. أفكر فيها دوماً وأمنع نفسي من أن أحزن. ويصير حزني إصراراً على الهروب منها ومن

شارع الاستقلال وبيروت كلها. موتها ساعدني على أن أصبح قاسية وأبحث عن مكان آخر. وها أنا أستخدمها مرة جديدة.

اختفت إذاً فجأة، بسرعة وسهولة وبساطة. لم أعد أراها. صرت أغمض عينيّ كي أراها وكي أرسم شكلها في رأسي. أطالب نفسي برسم أدقّ التفاصيل في وجهها، أضع الغمازتين مكانهما وأحاول أن أحدّد طول رموشها. أذكر أيضاً شكل أصابعها الطويلة الرفيعة، وشعرها الذي كانت دوماً ترجو منه أن يطول وتعده، إذا تحّقق رجاؤها، بمزيد من الدلال. كل يوم أراها وأسعى إلى استعادة صورتها. لكنني لا أطالب أمها بصورة لها حين أطالب ذاكرتي بابتسامتها. وبرغم علاقتي الوطيدة بالصور، تريحني حقيقة أنني لا أمتلك صورة لها. أصبح قاسية وأقسو عليها أيضاً.

لم أجد صورة لها عندي. فرشتُ صوري كلّها على أرض غرفتي ومددتُ بعضها على سريري وتحته. غطّت الأعوام الماضية والوجوه أيضاً، أرض الغرفة. دستُها، دهستها بقدميّ ومشيت عليها. مشيت على مهل كعروس تُزفّ إلى عريسها. وتسلّيت بتحسّس نعومتها على قدميّ.

بين الصور أطلّ وجه وسيم. كم كان يحبّ نفسه. كان وسيم يظنّ نفسه وسيماً ويصدّق كلام أمه عن جاذبيته وفتنته وجماله الساحر. وكان يتخذ قبالة الكاميرا وضعيات مختلفة، ينتئ شفتيه لعدستي ولا يبتسم ويقطّب جبينه. وإن ابتسم في صورة ما، بدا غبياً. أعادت الصور لي شكل ثغره ولون عينيه بعدما كنت قد نسيت تفاصيل وجهه. أقدر على النسيان إن نويت وإن لم تعصني حقيقة

أقوى مني. وسيم لم يكن وجوده في حياتي حقيقياً، لم يكن حضوره صادقاً. وإن أردت الآن أن أؤرّخ لمراحل حياتي القصيرة وأن أدوّن أحداثها وتفاصيلها، أخجل من القول إنني عرفت وسيم كل هذه الأعوام، وإنني وثقت به أو فكرت في أن أمضي معه عمري.

أمام الصور وبينها لم أبكِ أيضاً. وكل يوم أفكّر في الفرار. صرتُ الآن في مواجهة مع الموت. صرت أقاتل ودبّت فيّ غريزة الحياة. أفكّر في نفسي فقط وفي المكان الجديد، في لون الستائر في غرفة الجلوس الجديدة، ولون التلفزيون الجديد. أرجو ألاّ يكون رمادياً. لن أشتريه أنا، فالشقة مفروشة كلّها، حتى التلفزيون اختير لي في المكان الذي لا أعرف إذا اخترته أو لم أختره. ليلى لم أحزن عليها كما يجب. أفكّر فيها كأنها ما زالت حيّة. أغرق في صوري في احتفال جميل بالحاضر والماضي. صرت فجأة أكثر حكمة وحناناً. صور وسيم كلّها كانت في كيس بلاستيكي أسود كأنها جثة أردت التخلّص منها، وكانت مرمية في الدرج السفلي في خزانتي الكبيرة. ضممتُها إلى مجموعات الصور الأخرى التي أحتفظ بها في علبة خشبية، إلى صور بيروت التي وطّدتْ علاقتي بها وعرّفتْني إلى أكثر أجزائها غياباً، أجزائها الحقيقية الأصلية. بين الصور أيضاً صور طفولتي. صور وجهي الطالع من فساتين ملوّنة. وصوري مع أمي وأبي بين الأشجار والورود أو على الأريكة في صالون بيتنا الذي لم يتغيّر. ما زالت الأريكة الطويلة بنية، والطاولة الزجاجية أمامها محاطة بالخشب الكرزي المخدوش، وعليها عناقيد العنب

الكريستالية والأسد الصغير وصحون السجائر الملوّنة. لم يتغيّر شيء. بين الصور صوري في الفستان البيج يوم قيل لي إنني أعرف أن أكتب. كانت يداي ترتجفان. وقفتُ أمام الجمهور وألقيتُ ما كتبته خلال المسابقة. صفّقوا لي. رأيتهم في الصورة يصفّقون. ورأيتُني أرتجف. نلت «أوسكار» الشعر للصغار، بحسب قول معلّمتي. لا يزال شعرها المجعّد وشفتاها الرقيقتان في الصورة. في صورة أخرى كنت في السيارة مع أبي بعد انتهاء الاحتفال وفوزي في المسابقة. في طريق العودة، ألصقت رأسي بزجاج النافذة وكنت أفكّر في أنني أستطيع أن أجد لنفسي بقعة في العالم الذي أقف على عتبته. عالم ما زلت إلى الآن أقف على عتبته، لست داخله ولست خارجه.

كبطلة فيلم هوليوودي تقترب من الموت، وتلامسه ثم تنجو منه بأعجوبة، لأنها البطلة طبعاً، رأيت حياتي في صور متسلسلة لمراحلها المختلفة. أنا التي جئت من موت ليلى وأستعدّ للسفر، أعود إلى صور من حياتي وأحارب الحزن كي أنجو بأعجوبة.

وقد نجوت من البكاء عليها، لكنني أفكّر فيها طوال الوقت. هي نفسها منحتني القوة كي أقرر هذه المرة وأنفّذ قرار السفر الذي يفصلني عنه يومان وساعات قليلة. ما زلت في غرفتي. لا أعرف ماذا يحدث في الخارج. لا أحبّ أحداً إلا التلفزيون. ولا أسمع أحداً غيره. تغيّرتُ بعد موت ليلى. صرت أكثر هدوءاً وصرت أنتظر معجزة. بعد موتها، صدّقتُها. هل كان عليها أن تموت كي أصدّقها، وهل عليّ أن أسافر كي أفهم المكان الذي أعيش فيه؟

صرت أنتظر إشارة من بيروت تعطيني أملاً ما فقط كي أسافر وأنا مطمئنة. شعور أصابني منذ باتت ليلى تعيش معي في غرفتي وتعيش فيّ. ربما لم أبكها لأنني لم أفقدها فعلاً. تجلس معي في الغرفة قبالة شاشة التلفزيون. تظلّ فيّ. أسمعها: «يجب ألاّ نشعر بالملل. الملل والوقت مسؤولان عن أنواع مختلفة من الشرّ وعن خياراتنا الخاطئة والتنازلات والندم». أتذكّرُ ما كانت تقوله. أسمعها ولا أجيبها. أسمعها وأصدّقها. لا أحدّث نفسي عنها وأحبّ أن أتحدّث عنها. كمال وحده سيفهمني لأنه فهمها خلال جلستنا الوحيدة ولأنه بدا سعيداً بفهمها. كما من حقّ كمال أن يعرف أنني سأسافر بعد أقل من ثلاثة أيام. كنت قد وعدت نفسي بزيارته، كما وعدت نفسي بوداع شارع عبد الوهاب الإنكليزي وشارات السير قبل شارع المعرض، التي تغيظ السيارات الواقفة خلف سيارتي حين أحترم لعبة ألوانها، وقطعة من البحر كنت أظنّها لعامر. أَوقف البحر تدخّله في تفاصيل أيامي على الأقلّ منذ فقدتُ عامر. أحياناً لا أصدّق أنني استغنيت عنه أخيراً بسهولة بعدما قبلت بتخلّيه عني بسهولة. بعد موت ليلى لم يبقَ الفقد صعباً. الشقّة الجديدة التي ستكون لي وحدي، مكاني المجهول الذي أفهم منذ الآن علاقتي به، تعطيني قوة التخلّي عن الأشخاص الباقين هنا والأشياء التي أتركها ورائي.

كمال أتركه ورائي مع غصّة في حلقي. أحار في أمر وداعه. وتغيظني رغبتي في معرفة ما يفعله الآن. أحبّ أن أودّعه. أظنّه خلال الوداع يحنّ عليّ أكثر. أحب أن أودّع عالمه الذي كثيراً ما

غذّى مخيّلتي. أُحبّ عالمه. أُحبّ بيته ورائحة بيته الرجالية وصور بيروت القديمة، قبل الحرب، المعلّقة فوق الأريكة النبيذية في غرفة المكتب حيث يعيش كمال، ينام فيها ويأكل فيها. كثيراً ما تخيّلته ممدّداً على الأريكة نائماً أو حالماً أو ميتاً. لم أجلس عليها مرة واحدة خلال زياراتي له. كنت أختار الكرسي الملتصق بطاولة المكتب كي أكون قريبة من الكتب المرصوفة بترتيب عليها. فأتذرّع بقراءة عناوينها حين ينتهي الحديث، وحين أحسّ بغرابة في الأجواء أو في نظرته التي توحي أنه تعب مني.

أرى أحياناً الأريكة النبيذية في منامي، ومنذ منامي الأخير الذي رأيت فيه كمال يدفع الأريكة نحو باب الشقة لم أزره.

لم أرَه منذ أربعة أشهر ولم أتصل به. وإهماله السؤال عني طوال هذا الوقت وبعد موت ليلى، يمنعني من الاتصال به. أخاف أن أسمعه يقول إنْ اتصلت: «أنا في السيارة، اتصلي بي في وقت لاحق، أكون قد وصلت، ربما بعد نصف ساعة». ثم حين أتصل مجدداً لا يدعوني إلى السهر معه في صومعته، في سرّه، في أرضه المقدّسة. ينتظر أن أطلب منه أنا الذهاب إليه. لن يدفعني إغراء الجلوس معه إلى التنازل عن رغبتي في أن يرغب أحد فيّ. وقد أصبحت الآن أقوى. موت ليلى لم يهدّني، بل أعطاني القوة. وصرت أتسلّح بأبشع ما حصل لأواجه أية بشاعة جديدة.

بعد عودتي من زيارتي الأخير إلى منزل كمال، حلفت ألاّ أذهب إليه مجدداً إلا إذا طلب مني الذهاب إليه. كلامه القليل كان يهينني، برغم أنه كان يحاول أن يتكلّم معي. وكنت أحاول بدوري

الكلام الذي كان في معظمه شكاوى وتساؤلات لا تتحمّل أن يجيبني عنها. اقتنعت بأنه يعاقبني على صداقتي الضائعة بين حاجتي إليه، التي أدّعيها من دون أن أعترف بأنني أدّعيها فقط، وحاجتي إلى قصة شائقة ألوّن بها حياتي البيروتية المنتهية.

في تلك الليلة، عدت إلى البيت منهوكة. حملت الظلام في حقيبة يدي ونزلت من السيارة. أحسست بأنني ثقيلة، وبأن الأرض تهتزّ تحت خطواتي. الضوء نفسه في مدخل البناية استقبلني. أمام المصعد رأيت ليلى. سألتني هل رأيت طيوراً قبل دخولي. «طيور فوق هذه المباني الملتصق بعضها ببعض، في هذه السماء المؤطرة بجدران ونوافذ وأطنان من الحديد؟». لم تجبني وقالت بحماسة: «كنت في المطعم الجديد الذي افتُتح في فندق «فيفا» ورأيت منظراً يجب أن تريه، رأيت بيروتين. من فوق من الطبقة الرابعة عشرة رأيت بيروت الجديدة القديمة الجميلة المرِمّمة، والتي أوقظت بالقوة من موتها، ورأيت بيروتنا بمبانيها المتهرئة التي تخرج من بطونها أعوام التعب والذلّ، وتتدلّى من شرفاتها أقمشةٌ سئمت الحياة. تذكّرتك. قلت لنفسي إنك يجب أن تصوّري هذا المنظر. أفكّر في أن أصنع لوحة عن هذه الصورة. سأهدي إليك لوحتي. على فكرة، لم أستطع الليلة الانسجام مع المجموعة. وادّعيت أنني في منتهى الانشراح. وسألت نفسي لماذا أتحمّل ما أتحمّله؟ ولماذا حين يرقصون أتفرّج عليهم: كأنني أعاقب نفسي؟ سألتها أيضاً: لمَ أُعاقبها؟ وما الذي أفعله هنا؟ لكنني لا أهرب. أنتظر حتى يوصلني يوسف إلى البيت من دون أن نتكلّم ومن دون أن أواجه العتاب في

عينيه. كأن عليّ أن أنتمي إلى الساهرين معه كي يرضى عني». ثم لم تكمل ليلى كلامها حين سمعنا وقع خطوات تقترب منا. واختبأنا تحت السلالم. جمدنا وصمتنا، أقفلنا فمينا وقاومنا الضحك. لعبنا لعبة الطفولة التي كنا نلعبها في مدخل البناية أيضاً. «واحد، اثنان، ثلاثة، صنم»، كنا نردّد قبل أن نصمت ونجمّد حركاتنا. وأول الخاسرين كان مَن يتحرّك أولاً. كنت بارعة في هذه اللعبة. وليلى أيضاً برعت فيها حتى فرحنا بصعود «الدكتور محمود» من دون أن ينتبه لنا. تواطأنا في الضحك عليه، ثم قالت لي: «رأيتُ كمال البارحة في المطعم. أرسل معي سلاماً إليك. بدا لطيفاً وأنيقاً، تغزّلت بربطة عنقه الذهبية. تعرفين، لا بأس به، ليس مزعجاً كما يبدو عليه».

كمال لم يقل لي إنه رأى ليلى. تحدّثنا عنها ولم يقل إنه رآها. عرفت أنه مهتمّ بالحديث عنها، لكنه لم يخبرني. لا أظنه نسي أنه رآها قبل يوم واحد. لكنه لم يودّ أن يخبرني. أعرف أن نظرة ادعاء عدم المبالاة بحديث ما تُطيل وجهه وتقلّص مدار عينيه. أعرفها جيداً. وعدم المبالاة حين يدّعيه كمال يعني أنه مهتمّ بالحديث، لكنه يحاول أن يخفي اهتمامه. لم أرغب في أن أحلّل نظرته تلك لأنني كنت مشغولة بمحاولة إنقاذ كلامنا قبل أن ينتهي. وكنت قبل أن يختم جملة ما، أهيّئ سؤالاً جديداً، أو أحاول أن أركّب ملاحظة يستطيع أن يعتبرها ذكية.

لا أسأل كمال عن رأيه فيّ. لكنني أحاول أن أستدرجه إلى الحديث عني. فينجح دوماً في أن يعرّي ثقتي الهشّة بنفسي، وأن

يجعلني أندم على أسئلتي المتعلّقة بي. أخاف أن أطيل الحديث عن السفر كي لا أكشف له تردّدي وجبني. وبرغم أنني أصغر في نظر نفسي خلال وجودي في غرفة جلوسه، فإن رغبتي في زيارته لا تنطفئ لحظة واحدة. والآن أكثر من أي وقت مضى، أرغب في زيارته. أريد أن نتكلّم على ليلى لأنني اشتقت إليها، مع أنها معي، ولأنني أريد أن أفهم، وأريد أن أعترف بأنني لم أفهم في البداية لأنني لم أكن أريد أن أفهم ولأنني كنت مشغولة بي.

في الفجر يصحو ضميري قبلي، قبل أن أعي أنني ما زلت أحيا. في الفجر أراجع نفسي وأحاسبها. منذ كنت في المدرسة تعود إليّ أحداث اليوم الفائت فجراً. وأشاهدها في تلفزيون ذاكرتي الذي يشغّل نفسه فجراً. صرت أرى ليلى فجراً، سأقول لكمال. وسأقرأ له ما كتبتْه لي في بطاقة مطبوعة عليها صورة إحدى لوحاتها.

الآن أستطيع أن أفهم ما كتبتْه، وأستطيع أن أفسّره وأن أسأل عن صحة تفسيري وعقلانيته. ولم أنتبه إليه بعدما قرأته للمرة الأولى. قلت لنفسي يومذاك بعد قراءة جملتها إن ليلى مجنونة، وتريدني أن أجنّ معها، وقلت إنها حسّاسة وتحبّ أن يقال إنها غامضة وإنها فنانة تعشق الحياة وتغار عليها من الموت. لم يخفني كلامها ولو مرة واحدة وكنت دوماً سعيدة به. «اقبلي بالحياة كي أقبل بها» كتبتْ لي على قفا اللوحة الملوّنة بالبرتقالي والأحمر وبخيط أبيض رفيع. لم يخفني ما كتَبتْه، بل أضحكني يوم قدَّمتْ لي البطاقة، وجعلني أحس بأنني مهمّة وبأن ثمة مَن يخاف أن أختفي. أحببتُ ما كتبتْه مثلما كنت أحبّ كلامها كلّه واهتمامها بسماع كلامي.

كلامها كان للحظات ينسيني السفر ويخفّف عتبي على حظي ويقرّبني منها ومن بيروت. كلامها العادي أحياناً والمجنون أحياناً أخرى أذكره. قالت، ليلة زرتها في الطبقة الرابعة، إن بيروت على بشاعتها، تظلّ جميلة، وإن الآتي لا يمكن أن يكون أسوأ. «فلمَ تريدين السفر؟ والآن؟ انتظري قليلاً. أحس بأنك قريباً ستجدين عملاً. وإذا وجدت عملاً، فكّري في استئجار شقة تعيشين فيها وحدك. أظنها فكرة تعجبك، لكنك لا تحاولين أن تجدي عملاً في بيروت. أوقفتِ المحاولة. هل قرأتِ موقع الإعلانات المبوّبة اليوم؟ منذ متى لم تزوريه؟» سألتْني. ولم أكن أسألها. كنت أنتظر دوماً كلامها عني. حين تكلّمتْ مرة طويلاً على علاقتها بيوسف، وعلى الألم الذي يسبّبه لها، استأتُ منها وسألتها بغضب محاولة أن أنهي حديثنا عنه: «ماذا تريدين من يوسف؟ اتركيه».

«أحبّه، أضحك على نفسي حين أقول أمامه إنني لا أحب الأطفال. أتمنى أن يكون لي منه طفل أنام إلى جانبه».

كل لحظة أسمعها. ليتني أستطيع أن أحكي كلّ ما أسمعه، أن أكتبه. ربما حصلتُ على حنان كمال إن حكيتُ له. لكنني أرفض أن أستخدم ليلى لتحقيق أكثر من هدف واحد، الآن أريد أن أركّز على السفر. أمنع نفسي من زيارة كمال، أحاربها كي لا أزوره. وأحارب ليلى التي لا تفارقني، كي لا أزوره. أطبق بكفيّ على أذنيّ، فأسمعها. أغمض عينيّ، فأراها، وأرجو من هاتفي الصغير أن يخلّصني وأن يحمل لي اتصاله كي لا أتعذّب. أصبح قوية، أصبح جبارة. ما زلت لا أبكي ليلى خوفاً من أن أستسلم للموت، لموتها.

وبدأت أسرع في الاستعداد لسفري، في توضيب أغراضي وفرز صوري وألبوماتي الموسيقية وكتبي وأشيائي الخاصة. لكنني أستسلم لصورتها التي لا تغادرني ورغماً عني تجلس فيّ، ورغماً عني أفكّر في أن أسلّمها إلى كمال ثم أقاوم فكرتي وأرفضها. لم أحصل، كما أردت قبل السفر، على أيام من الوحدة المتحرّرة من أية رغبة في الحب أو في رفقة. فقد رافقتني ليلى. كذلك أرغب في رفقة كمال وفي حنانه. أقلعتْ روحي الوحيدة عن التوق إلى الهروب من الأيام الماضية التي باتت الآن كل ما أملك. لا أنجح في أن أتحرّر من كل ما يكبّلني، ولا أنجح في الهروب من الموت، موت ليلى الذي يكبّلني. ربما حرّرني سفري وربما أبعدني عن الموت. صرت أتوق إلى موعد الطائرة، إلى أن تأخذني الطائرة إلى حياتي الجديدة. حالة الضياع عادت لا تؤرّقني بين هنا وهناك. أبدأ طيّ ملابسي بترتيب وعلى مهل كي أذكّر نفسي بأنني أحيا.

في غرفتي، في قفصي البيروتي الجميل، أتأهّب للسفر ولا أطلّ من شرفتي إلى شرفة الطبقة الرابعة. خنقتُ الساعة المعلّقة على الحائط في غرفتي حين دقّت قائلة: «ستذهبين إلى ليلى يوماً ما». أشغل نفسي بضرورة سفري بحثاً عن حياة. كل يوم سأبحث هناك عن حياة جديدة. وسأبحث هناك في الكتابة عن يدين تعانقانني وصوت يستوعبني وقلب يحبّني. أحلم بصوت يشبه صوت كمال الذي لا أعرف تفسير إحساسي به. أحسّ بأنني أنتمي إلى صوته، وإن لم أرَ وجهه. ولا أحس بأنني أنتمي إلى وجهه، إن رأيته من دون أن أسمعه. صوت كمال ينتصر على وجهه وعليّ. أريد صوتاً

مثل صوته في الحياة الجديدة. وأَعدُ نفسي بصوت مثل صوته مثلما أَعدُ نفسي بالكتابة.

أقتربُ بحزم من حياتي الجديدة. وبين الصور والألبومات الموسيقية وكلمات الأغاني التي كتبتُها وظلّت كلمات من دون أن تصبح أغاني، كما ظلّت على أوراق رقيقة شفافة في درج المكتب تحت النافذة في غرفتي، وبين الملابس وحقيبة سفري الضخمة، أحاول أن أتصالح مع حياتي القديمة نكاية بالموت الذي يحاصرني. وأحتفل أيضاً بحياتي الجديدة، وأدخّن سيجارة لأعلن لنفسي أنني مستعدّة للمغامرة. أدخّن احتفالاً بمغامرتي الآتية التي لم يعد يغيظني أن أكون مرغمة عليها. ليلى كانت تلتمع عيناها إذ تقول لي: «تعالي ندخّن في الشرفة».

تحاول أمي أن تودّعني كل يوم. أنقل إليها أنني لست مستعدة بعد لوداعها. تلومني أمي لأنني أعقّد الحياة ولا أفهم أن راحتي بأن أتزوّج وأربّي أولادي على مهل، كما تقول. ولمَ كل هذا التعب، سفر وعذاب و«بهدلة»؟ وماذا تعنين بحرّة كلّما سألتك عمّا ستفعلينه هناك؟».

«حرّة يعني حرّة. هل أموت إنْ لم أتزوج؟ هل يجب أن أتزوّج».

تعانقني مرة كل ساعتين أو ثلاث. ما زالت لا تصدّق أنني أمضيت معظم الأسبوع الأخير في غرفتي، وإن لم أجلس معهما. لكنني ظللتُ معهما في البيت واختبرت إحساسهما بتسليم وقتيهما وطاقتيهما وحياتيهما للتلفزيون.

أضعفُ أمام أمي. وأرغب في البكاء أمام وجهها. تحسّ بي ولا تواجه ضعفي، تهمله لأجلي، تفهم عليّ فجأة. تفهم عليّ في لحظاتي «العاطفية» وترفض أن تفهمني خلال حواراتنا التي تبدأ هادئة وتنتهي غاضبة. ويغيظني أنها تفهمني وتنكر أنها تفهمني. كما يغيظني أنني أصير مثلها، أقلدّ حركاتها من دون أن أنتبه إلى أنني أقلدّها.

كلّما كبرتُ ازداد الشبه بيني وبينها. حركاتي أحاول أن أحرّرها من حركاتها. حتى صوتي أَصبح يشبه صوتها. وإذا اضطررت إلى رفع سمّاعة الهاتف كي أتخلّص من رنينه، يظن المتّصل دوماً أنني أمي. أُصبح مثلها في كل شيء. مثلها أنام قبل أن أطفئ جهاز التلفزيون، ومثلها أبدأ بقراءة الصحيفة من صفحتها الأخيرة. مثلها أنام على الجهة اليسرى من السرير. ومثلها أفتح باب الخزانة وأستلّ مفتاحاً من الرفّ العلوي. وكنت كلّما رأيتها تواجه الخزانة وترفع يدها إلى فوق، ضاق تَنَفُّسي لأن المشهد لا يتغيّر. تأخذ مفتاح صندوقها الخشبي العريض، المزيّن بزهور مرسومة باليد، حيث تخبّئ نتفاً من طفولتها ورائحة أمها، جدّتي، وعقوداً وحلىً كانت تتزيّن بها في طفولتها، وأوراقاً رسمية باتت بلا قيمة. كلّما رأيتها تفتح صندوقها، أقنعت نفسي بأنني قريبة منها وبأنها تتعاطف معي، لكنها تمثّل عليّ دور الأم التي تؤنّب ابنتها الضالة. أحبّ الصندوق ومشهد استمتاعها به وبما تخفيه داخله. كل مرة تُدهش حين تفتحه، كأنها تفتحه للمرة الأولى. كل مرة وفي تلك اللحظة فقط، تعود إليّ أمي التي أنا ابنتها، والتي عرفتها قبل أن تُعلن نهاية الحرب وتصبح

سجينة في المدينة الجديدة القديمة، سجينة غرفة الجلوس والتلفزيون. وأسامحها على عدم تفهّمها عصياني وأقول: «أمي مثلي أعصابها تعبانة». أصبح مثلها، أسحب المفتاح لأتلصّص على ما خبأته خلال الأعوام في الدرج الصغير.

كأنني أمي حين تفتح صندوقها الخشبي، دُهشت حين فتحت الدرج الصغير أسفل الخزانة. قبّلته. دوماً أرشّ داخله قليلاً من عطر أحببته منذ بدأت أُحبّ. في الثالثة عشرة من عمري أحببت ربيع. كان طويل القامة. وكانت عيناه زرقاوين. «لماذا لم تأتي البارحة، انتظرتُك». خلال ثلاثة أسابيع، قرأت هذه الجملة قبل نومي. أقرأها الآن في بطاقة ربيع الوردية والمرسومة عليها زهور وقلوب وشفاه. ما زالت معطّرة لأنني ما زلت بين الحين والآخر أرشّ عليها العطر. في الدرج أيضاً أشرطة تسجيلية ورسائل وصور اقتطعتُها من صحف ومجلات. كلمات كتبتُها وتلقّيتُها ونسيتُها. لم أعد إليها، لكنني لا أستغني عنها. تعلّمت الأرشفة التي عملت فيها، منذ كنت صغيرة. ربما كانت تلك طريقتي في التعلّق بحياتي بمراحلها المختلفة. الحرب علّمتني الأرشفة. في البيت، كنت أتسلّى بدهشتي قبالة صورة أراها ولا أفكّر في إعادة تركيب مسرحها وفي الرعب الذي صنع منها فصلاً من فصول مسرحية درامية موجعة. الآن أصبحتُ أفهم. الآن وإن كنت لا أعود إلى الصور، وإلى ما قصصتُه من الصحف، فإني لا أستغني عنها. فقد صنعتني، صنعت الفتاة المرتبكة الحزينة التي صرتُها. كنت لا أنظر إلى أشخاصها كأشخاص أشبههم بل كأبطال مسرحيات يبدعون خلال العروض، وينتظرون

إزالة طبقات المكياج السميكة التي غيّرت سحناتهم. هذه الصور أخافها الآن، أخاف سوء فهمها والتشويه الذي ألحقتُه بها بسبب جهلي وصغر سنّي. أخاف لأنني لم أحاول أن أصحّحها لاحقاً. كنت أؤجل هذه المهمة الثقيلة على قلبي كي لا أزداد ثقلاً وكآبة وارتباكاً. هذا ما ظننتُه على الأقل. وربما لو فهمتُ لما تأزمت علاقتي بالمدينة إلى هذا الحد. لو اعترفت لنفسي بأن هذه الصور حقيقية وأنني كنت جزءاً منها وطرفاً فيها ككلّ سكان بيروت، لما وصلت إلى باب الطائرة في رحلة لا أنوي العودة منها.

بين الصور التي قطفتُها من صحف قديمة، رسائل غرامية لوّنتْ طفولتي وصباي. رسائل من شبّان لم تهرّبهم منّي كآبتي التي لا تليق بفتاة صغيرة في السن. وربما جعلتني أبدو ثقيلة الدم. رسائل ظلّتْ اعترافات ضرورية بالحب كي تكون مراهقتي شبه طبيعية. واعترافات ظلّت اعترافات فقط، لأنني لم أصدّق أنني أستطيع أن أكون مثل فتيات المدارس المختلطة كالليسيه الفرنسية مثلاً بأزيائهن الملوّنة وضحكاتهن العالية والعلكة التي لا تترك أضراسهن. كنت معجبة بهن وأحتقرهن في الوقت نفسه. لم أكن قد عرفت الغيرة بعد. وكنت أعِدُ كآبتي بأن أقدّرها لأنها تميّزني منهن.

بين أوراقي أيضاً قصائد قصيرة كتبتها بالعربية والفرنسية. ليست قصائد حب، فلم أكتب يوماً قصائد حب، مجرّد كلمات حاولت عبرها أن أصف علاقتي بأشخاص معيّنين، بأمي وفتيات اخترن صداقتي ومدرِّستي الرقيقة الشفتين.

في الدرج السفلي أيضاً أشرطة وألبومات أحببتُ موسيقاها خلال

أعوام، فكرّمتُها بالاحتفاظ بها في درج حياتي. احتفظتُ أيضاً بشريط حمل إليّ صوت شاعر ما زال يعيش في المنفى. في قصائده التي استمعت إليها بحب، متخيّلة أجواء أمسية ملتهبة قرأ خلالها في المنفى شعره غير المنفي، المدنُ توحي القصائد والنصوص وأساليب الحياة، والمبدع يحمل معه مدينته المفضّلة أينما حلّ. هذا ما قاله لي الشاعر في قصائده المسجّلة قبل خمسة أعوام. كأنني احتفظت بالشريط لأفرح به في يوم مثل يومي هذا. أريد مثل الشاعر أن تصبح الكتابة مدينتي. لو كنت أستطيع الاتصال به، لسألته عن الحياة هناك، في المكان الآخر، الحياة اليومية الحقيقية خارج القصائد.

لا أودّع أوراقي وكتبي بعناوينها وكلماتها وصورها وأصواتها، ولا أودّع الدرج السفلي في خزانتي. أحمل جزءاً منها معي، أختار من دون أن أفكر كتباً بين الكتب، التي لا أتوقّف عن إعادة قراءتها، وعدداً من الألبومات والأشرطة ودفاتر حاولت فيها أن أكتب مقالات لعدد من الصحف ورسائل حبّ وكره وعناوين وأرقام هواتف لم أعد أستخدمها أو أحتاج إليها، لكنني لا أستغني عنها. أسمّع نفسي الأرقام التي ما زلت أحفظها. أقرأ الاسم وأغمض عينيّ وأحاول استعادة الرقم من ذاكرتي. وإن نسيته، أسترق النظر إليه، ثم أغطيه بأصابعي. ألعبُ مع الأرقام ومع ذاكرتي التي يجب أن أستمرّ في تمرينها على الوفاء لأجزاء من حياتي هاجرت، ولأسماء ألحق بها وأطلب لنفسي مصيرها نفسه. ولا أستغني عنها. تظلّ الأسماء المهاجرة والأرقام جزءاً من حياتي. ولا أستغني عن حياتي وإن كنت أريد أن أبدأها من جديد. أتركها ولا أستغني عنها.

قبل يومين من سفري أتمرّن على الكتابة، على الحياة الجديدة.

«اكتبي أنت الأيام وأنا أرسمها»، قالت ليلى. قبل أن أفكّر في السفر، فكّرت في الكتابة. وكنت قد أخبرت ليلى أنني وعدت نفسي بالكتابة. كنت أريد أن أشرح لها أنني أنا أيضاً أعتبر نفسي مميّزة، وأمتلك ما أستطيع دوماً أن ألجأ إليه إن أردت، أمتلك على الأقل خياراً في يدي. هي لم توح لي يوماً أنها تعتبر نفسها مميزة، أو أنها تتفوّق عليّ. بالعكس، كانت دوماً تسخر من موهبتها، وإن كان يعترف بها كثيرون من بينهم أنا، ومن تصرّفاتها الخرقاء، كما كانت تصفها. كذلك كانت تسخر من سوء حكمها على الاشخاص، وخصوصاً إذا لم تتعمّق في معرفتهم. وكنت أسخر أنا من طيبة قلبها، ومن تفاؤلها الهشّ والزائف، والذي هو في الأصل سوداوية تسعى جاهدة إلى تلوينها.

لم يكن عليّ أن أقنعها بأنني إن أردت، أستطيع أن أكتب، أن أتحوّل كاتبةً. ولم يكن عليّ أن أقنع نفسي بأنني أستطيع الكتابة، فقد حاولتُ الدفاع عن نفسي بالعودة إلى مشاعر قديمة، وصفتُها بالغباوة حين كبرت قليلاً. وغباوتي وحدها قادتني إلى الظن أني مختلفة حين قررتُ أن أنبش من الماضي سلاح الكتابة، كأنني أمتلكها وأمتلك القدرة عليها. صدّقتُ ذكريات المدرسة كي أحافظ على ذلك الشعور الغبي بالتميّز، وكي لا أخبط رأسي بالحائط. وحدها غباوتي قادتني إلى ظني هذا، ثم قادتني إلى الحائط، إلى الـ Dead End، قلتُ لليلى التي لم تقبل أن ألوم بيروت على مراوحتي

مكاني، على اليوم الذي يشبه البارحة وأيام السنة كلّها، وعلى إحباطي.

أقنعتُ ليلى بأنني مميزة وبأنني على الأقلّ أستطيع الكتابة إن فشلت في التحرّر من مشكلاتي الجسدية والنفسية والاجتماعية، ومن سطوة المكان عليّ.

«الغربة ربما قدّمت لي السكينة، سكينة بلا حب وبلا وجع وجودي يلوّن الحياة، لكنها سكينة». قلتُ لها وأنا أودّعها. ظننتُها تغادر بيروت إلى باريس. وهي ربما كانت تعرف أنها تغادر إلى عالم آخر. لكنني لم أنتبه ولم أشك لحظة. أتقنتْ حب الحياة في كلامها، حتى كلامها الأخير معي. وأنا أتقنتُ صدّها وتجاهل شفافيتها. لو كانت ليلى هنا لتحدّتني الآن وقالت: «الحياة تمضي من دونك. مَن تظنين نفسك أصلاً؟ هل أنت أول من غادر؟ هل أنت آخر مَن غادر؟ لكنني أقول لك إن البكاء هناك لا يريح بل يوجع. ابدئي من الصفر، لكن المكان المتغيّر لا يحرّرك. المكان لن يحرّرك. ومع كل صباح يبدأ انتظار جديد. أبي، حين حملنا في عزّ الحرب إلى باريس، ظلّ يعيش في بيروت التي لم تكن مجرّد مكان لم يعد يضمّه، ظلّت صديقته وحبيبته وأمه وأباه وأهله. لم يستطع أن يذهب بنا أبعد من باريس. وربّما سمحت باريس ببقائه على اتصال ببيروت التي علّمنا أن نعود إليها في أقرب فرصة. وعدنا. لم نصدّق أن المدينة شُفيت لأننا لم نرَ جروحها، سمعناها تتألّم وأحببناها كأننا لم نتركها. وربما ندمنا لأننا تركناها، ولم نقل إننا نحن الذين لم نصنع الحرب. لم نقل إننا عرفناها من دون أن

نعرفها جيداً، أو إننا سمعناها من دون أن نفهمها، بل تعلّمنا الدرس، خصوصاً جيلنا نحن، أنا وأنت تعلّمنا الدرس. وفي سهراتنا كنا نحاول أن نتناسى العنف الذي جئنا منه. لكننا يجب ألاّ ننساه كي لا نعود إليه، ولا نستطيع أن ننساه. نستطيع للحظات أن نفقد الوعي كي نتطهّر، كي ننسى لوقت قصير، لساعات قليلة، أننا انحدرنا من جيل قاتل ومقتول، جيل يجب أن نلوم أنفسنا أيضاً حين نلومه». حين تتكلّم ليلى بحماسة لا أعرف أن أجيبها. تكلّمتْ بحزن أيضاً. ثم لا أعرف كيف تسلّل كمال إلى كلامها، ولِمَ سمعتُ اسمه فجأة، ولِمَ تَذكّرَتْه أصلاً.

«أسئلة كثيرة تعيش معي، واتهامات لا أستطيع أن أواجه أبي بها باعتباره ابن ذلك الجيل، وباعتباره رأى العنف منذ شرارته الأولى. أسئلتي يصعب أن أجد عنها أجوبة عقلانية لأنني لن أقبل بأجوبة قائمة على المنطق، فما حدث لم يكن له أية علاقة بالمنطق. تعرفين، أحياناً أحسدك على كمال».

لم أقبل أن نتكلّم على كمال. أردت أن يبقى كمال لي وحدي، كان يجب أن أُبقيه سرّي الصغير أو الكبير، لا يهمّ. ولم يعد يهمّ الآن.

أعود إليها كل لحظة. وكي لا أبكي أحاول أن ألهو بالموسيقى، أرفع صوت الموسيقى ولا أنسى. توقّفنا لشراء المناقيش من فرن قريب من برج «المر» بعد عودتنا من السهرة الشهيرة في الكرنتينا. كنت آكل وأقول: «لا أستطيع إلى الآن أن أصدّق أن جثثاً انتشرت حيث نقف».

ـ «لا أستطيع أن أرى جروحاً إلا جروح جسمي. لا أتحمّل رؤية دم إلا دمي. أذكر الجرح الذي زرع حفرة في ذراعي. هربنا من بيروت إلى قرية في الجبل. في فسحة البيت الذي لا أستطيع أن أنساه، وقعتُ عن دراجتي وفرحت بجرحي، لأنني فكّرت في أنه يجعلني مثل المصابين الذين يتحدّث أهلي والجيران عنهم بشفقة وخوف. كانت أصابعي حين أمرّرها عليه تلتصق به. وتآلفتُ يومذاك مع الدم الذي أفقدتُه هيبته وصرت به أبحث عن معاقبة نفسي والاشفاق عليها».

من دون أن أنتبه نظرتُ إلى الجروح العديدة التي سألتُها عن آثارها في ذراعيها. وعرفتْ أنها باحت بالكثير ثم سكتُّ ولم أسألها مجدداً. خفت أن أطأ مكاناً لا أريد أن أعرفه. والآن ألوم نفسي لأنني لم أرد أن أعرفه. كان عليّ أن أهتمّ بمعرفته وأن أتخلّى مرة واحدة عن أنانيتي.

لهذا أقول إنني لا أعرفها وأصرّ على أنني لا أعرفها. لهذا أظنني سأكتب عنها كلّما حاولت أن أكتب عن نفسي. لهذا أيضاً ستصير فيّ، شكلاً من أشكال الأساطير، وسأجد نفسي أحتفظ فيّ بصورة لامرأة أخرى، ولعلّي سأحكي عن امرأة أخرى، عرفتُ وجهاً من وجوهها ولم أعرفها كلّها. لكنني سأحكي عن هذه المرأة التي لم أعرفها. فهل كانت ليلى فعلاً ما أراه الآن فيها، وما أريد أن أكتبه عنها؟

لم يغيّرها الموت فقط. أردت أن أغيّرها. الموت وحده يضخّم الذكرى ويصنع حول الذين أطفأهم هالات تشعّ بالحسنات والميزات

والصور الجميلة، والانتحار يولّد أيضاً عاطفة غنية بمزيج من الشفقة والغموض والإعجاب بجرأة المنتحر وحريته.

أحس بأنني سأكتب عن ليلى. سأستعملها الآن أيضاً كي أتشجع على السفر وكي أكتب. كما تسهل الكتابة عن الأموات، يسهل استعمالهم والتذرّع بهم وبتأثيرهم فينا. الآن أصبحت أربط كلامها بعضه ببعض. الآن باتت تتركب الصورة التي لم أكن لأراها في كابوس. ليلى قالت: «قد نضطر في لحظة واحدة إلى أن نغيّر خططنا كلّها، وأن تتغيّر رؤيتنا للمدينة وحاجتنا إليها». ظننتُها تتحدّث عني وتعدني مرة جديدة ببيروت جديدة ستنهض من أوجاع بيروت نفسها. فهل كانت ليلى تتكلّم على نفسها؟

لم تقل لي إنها لم تسافر. ودّعتُها وعشت على أساس أنها قد سافرت فعلاً. لكنها اختبأت مني في أسبوعها الأخير. ثم قررت رؤيتي قبل موتها بقليل. لا أبكيها. ما زلت أفكّر فيها ولا أبكيها. قبل أسبوع من موتها ودّعتُها. قالت إنها ستمضي في باريس أسابيع تحتاج إليها من أجل الاستعداد لدراسة التصميم الداخلي التي قررتْ أن تتابعها. وقالت إنها تهرب من الفراغ الذي يتركه يوسف في حياتها، وإنها تذهب أيضاً كي تؤدّبه، وكي تظلّ في الوقت نفسه دوماً قريبة منه وملتصقة به. كانت تقاومه خلال أيام ثم تطارده خوفاً من أن تفكّر في الحصول عليه امرأة أخرى. لم تقدر أن تعلّمه الرقّة، أو أن تغيّر تعاطيه الاستهلاكي مع أشياء الحياة الجميلة. لم تستطع أن تجعل ذوقه رفيعاً، ولم تستطع ألاّ تحبه. ظننتُها تمنحه فسحة من التفكير في احتمال خسارتها، ظننتها تهدّده.

ودّعتها ثلاث مرات خلال أسبوعين. وكانت كل مرة تؤجل السفر. ثم قبل أسبوع من موتها، قالت إن «الثالثة ثابتة»، وإنها هذه المرة ستسافر، لكنها لن تتعامل مع باريس على أنها تعيش فيها. ولن تبحث فيها عن أصدقاء، ولن تبتسم لجيرانها الذين لا يبتسمون لها، ولن تطلب من أحد المارة سيجارة كي ترى ردّ فعله وتأثيره في عينيه ووجهه. ودّعتُها أول مرة بعد قرارها الانفصال عن يوسف، ولم أصدّق يومذاك أنها ستسافر فعلاً. كنت أعرف أنها لن تتركه لغيرها، ليس بعد تعبها عليه وعذابها معه وبعدما خطّطت أن تمضي معه حياتها التي كان يجب أن تأتي. وكنت قلقة من غيابها عني، فبرغم المرارة التي تطبع نظرتها إلى الحياة وكلامها عليها، فقد أدمنتُ ديناميكيتها العجيبة ومظهرها الأبيض الذي ينير أشد لحظاتي حلكةً. في الأسابيع الأخيرة، ظلّت ليلى في أزياء بيضاء برغم ألوان الشتاء التي تعيش معها. في البيت كنت أراها في تنورة طويلة بيضاء وقميص أبيض، وفي الخارج في كنزة بيج أو بيضاء وبنطلون جينز. ولم يخطر في بالي أنها بالأبيض تتهيّأ للموت.

لم يمنعني أحد من السفر، لم يفتح أحد ذراعيه ويقف أمامي، وجهه قبالة وجهي، ليحاول منعي من الهجرة. تركوني كلّهم. ولو شككتُ، مجرّد شك، في أن كمال سيحاول إقناعي بالبقاء إن أخبرته باقتراب موعد سفري مستغلاً علاقتي الغريبة بصوته، واحترامي له إلى جانب ضياعي فيه، لاتصلتُ به. حتى أبي، يكتفي بحبي ويشغل نفسه بالعيش في ماضيه ومطاردته في صور وكتب ومقالات، وفي البحث عن بيروت التي تركها في ألبومات صوره القديمة. حتى أبي

لم يحاول إقناعي، بهدوئه المتعب، بألاّ أسافر أو على الأقل، بأن أؤجل سفري.

لو كانت ليلى هنا لابتكرت سيناريو وشاركت في تمثيله كي تمنعني من السفر.

ليلى تعرف عني كل شيء، لأنني لم أكن أسكت حين أراها. وجهها كان يوحي لي ضرورة أن أعترف لها بأوجاعي كلّها، وبقدرتي على منح الحنان وحاجتي إلى منحه والحصول عليه. أفصحتُ لها عن علاقتي بكمال، العصيّة على الوصف والتصنيف. وكانت تشجعني عليها وتُجاري حماستي للقاءاته. لكنني لم أُشركها في الغوص في تحليل علاقتي به أو في خوفي منها. ولم أحب أن نتكلّم طويلاً عليه. كنت أحبّ أن أسمع عن علاقتها الغريبة ببيروت. فليلى التي عادت إلى بيروت أوائل التسعينيات، تعرفها أكثر مني وتعرف أن تحبّها أيضاً. تفهم عليها وتبرع أكثر مني في اللغة التي تقرّب المدينة إلينا، لغة الصور. والكاميرا التي وطّدتْ معرفتي ببيروت، وطّدتْ معرفتي بليلى أيضاً. لكن ليلى كانت أشدّ ولعاً مني بهما.

قبل سفرها المزعوم بيوم واحد، جرّتني وراءها، وكانت الكاميرا تجرّها من كورنيش البحر إلى الأزقّة التي تواجهه إلى وسط بيروت الذي نسميه «البلد»، قلب بيروت الذي سكت ولم يُنقذ، لم ننقذه بل دهنّاه ولوّناه وجلسنا فيه نتفرّج عليه. مع ليلى انفتحتُ على أربع «بيروتات»، أو أكثر. وكانت ليلى تتجاوز دهشتي وتعلّمني أن أجد الجمال والحب في كل منها. مع ليلى كان مزاجي دوماً جيداً،

برغم نقّي وقرفي واشمئزازي، لأنني كنت أمضي الأيام كما أريد أن أمضيها. كنت معها أبحث دوماً عن الحب، عن أن أُحِب وأن أُحَبّ. ولو كانت هنا وحاولت منعي من السفر، لاسترحتُ وأحسستُ بأنني منفتحة على الخارج، خارج غرفتي، وبأنني حين أسافر لن أمضي عقوبة سجن في اللامكان، ولن أكون امرأة أخرى، لأن الحياة، برغم كل شيء، يمكن أن تكون جميلة. ربما علّمني تفاؤلها الزائف والمبالغ فيه، والذي تموج فيه كآبة جميلة، أن أتحمّس للحظات السفر وأن أحسّ بأنني به أتجدّد، وربما غفرتُ لبيروت إغفالها حقّي في أن أعيش فيها.

«ما ذنبها بيروت» أجابتني ليلى حين اتهمتُها «بتطفيشنا كلّنا».

«ما ذنبي أنا»؟ أجبتُها.

عليّ أن أسلّم أيضاً برحيلها. ليلى التي تفهم على بيروت، والتي لا تتعب من تصوير أوجاعها ومن حبّها ومن انتظار أن تزهر هذه الأوجاع، رحلتْ عنها. فهل أبقى أنا «البومة»، كما سمّتني مرة؟ وهل أتوقع من نفسي أن أبقى و«أقاتل»، كما كانت تقول لي، وأدوس أحلامي ومشاريعي كلّها. «أقاتل مَن وماذا؟»، سألتُها.

لا أستطيع أن أكون ليلى التي عرفتُها، لكنني أفكّر فيها كي أصير أقوى، وكي أحارب بها ليلى التي لا أعرفها، والتي ماتت من دون أن تخبرني أنها ستموت. أريد أن أفكّر في ليلى المقبلة على الحياة كي أهرب إلى حياتي الجديدة. لكن يصعب عليّ أن أعرف مَن قتل ليلى.

«أعرف أن أحبّ ولا أعرف أن أتزوّج»، قالتْ لي في الرابعة فجراً. استللتُ سمّاعة الهاتف من تحت سريري وكنت لمّا أزل نائمة. لم أخفِ رنينه. كنت بدأت أعتاد أن تفعل بي ليلى أموراً كهذه، كأن تتصل بي في الساعة السادسة صباحاً، أو أن تضع لي وردة على زجاج سيارتي، أو أن تختفي خلال أيام طويلة من دون أن تسمح لي بأن أعرف خبراً واحداً عنها. تغيب ليلى، «تغطس». ثم تظهر منتعشة كما عرفتها دوماً، حاضرة لتلقّي صفعات الأيام بحبّ. ليلى التي كنت أظن أنني أعرفها، لا تتعب ولا تفقد الأمل ولا تخاف أن تسمّي جزءاً من حياتها تجربة.

أفكّر في ليلى التي عرفتها، كي يتحسّن مزاجي وكي أتصالح مع ساعاتي الأخيرة في بيروت. فليلى التي عرفتها، وعدتني بأن يعود شارع الحمرا شارع الحياة الجديدة في بيروت. «وهل من حياة جديدة في بيروت؟»، سألتُها.

قبل سفرها المزعوم، الذي لم أفهم قصّته والذي لم تعُد منه البتة، أهدَت إلي صوراً لبيروت. «سأحملها معي»، قلتُ. ولم تصدّق أنني أستطيع أن أرحل. «لن ترحلي لأنك ما زلت تتجنّبين المرور بأزقة معيّنة كي تهربي من قصص حبّ قديمة لم تنمُ»، قالت ليلى. ثم ودّعتُها للمرة الثالثة، واتفقت معها على أن نلتقي بعد أسابيع، «لا تتأخري على وداعي، دوري آتٍ، أحسّ بذلك». خفتُ حين تذكّرت جملتي هذه. خفت أن أموت. وأصبحت أشدّ تصميماً على السفر وظللت أحارب بليلى ليلى المنتحرة. أحاربها كل لحظة. كانت ليلى التي عرفتها تقول إنني أحتاج إلى حب مشاكس وحالم،

وإلى أن أكتب حكاياتنا، أنا وهي، لكنها لم تقل لي كيف كانت تنوي أن أنهي حكايتها التي لم أكن أعرف أنني سأكتبها على أوراق من نار أو على صدري.

كلامي مع بيروت المتفتّحة صباح يومي ما قبل الأخير فيها، وقبل ساعات من سفري، بلا معنى. إن كتبتُ عنها أبدو أقلّ غباوة. الكتابة على الأقلّ تظلّ لي. تبقى وأمتلك حرية التّصرف بما أكتبه، أستطيع أن أمزّقه أو أحرقه، أستطيع أن أحتفظ به أو أحذف منه، أن أقدّم كلمة هنا وأؤخر كلمة هناك. أستطيع عبر الكتابة أن أحصل على إحساس بالحرية. الكلام سأفقده، سيطير مني، من عقلي ومن شفتيّ إلى اللامكان، إلى الهواء، إلى المجهول. وربما حاسبتني عليه المدينة فجأة.

الكتابة لليلى أيضاً أسهل من الكلام معها. الكتابة تجمّد دمعتي التي لم أذرفها بعد. ما زلت أقاوم البكاء من دون أن أعرف سبب مقاومتي. ربما كنت أريد أن أستمرّ في ادّعاء القوة والصلابة حتى أصل إلى الطائرة، وأكون قد استخدمت موت ليلى أيضاً. منذ ثلاثة أيام لم أغادر غرفتي. لم أجُلْ في الشوارع مثلما يودّع أبطال الأفلام السينمائية أمكنتهم.

صباح جديد شغلتني بيروت خلاله. صباح أَمتلكه ثم أكرّسه لها كي تستريح ليلى التي تنظر إلينا من فوق. «إذا ذهبتِ وعشتِ في الخارج، فستحسين بأنك تعيشين فوق بيروت وأنك تراقبينها من فوق، من طائرة هيليكوبتر أو من على غيمة، أو من سُلّم يقودك إلى فوق، إلى السماء». قالت ليلى.

ومن فوق سأتوق إلى أن أفهمها. سرّ بيروت مع ليلى التي تعرف كيف تلمسها، وتتوق إليها وتفهمها وتتعرّف إليها ولا تنساها. ليلى خرجت من بناية «صادق» كي تظلّ تحت تراب بيروت. وأنا حين أخرج من بناية «صادق» بعد ساعات، سأحاول أن أنفصل عن الوجع الذي سبّبتاه لي هما معاً، بيروت وليلى. وسأرى المدينة من بعيد، وسأهدأ وأقوّم فوضاها التي ربما رأيتُها جميلة وحيّة. سأتمنى أن أعيش بدلاً من أن أحلّلها. سأعيش هناك فرق الزمن، سأعيش متأخّرة عن الحياة هناك ساعات.

ضعت بين الاحتفال بأول مشواري الجديد والحزن على فراق ليلى وبيروت. وظلّ الصمت أجمل من أي كلام. الرقص أو التعبير الجسدي قد يفيد أيضاً في حالتي هذه. تتجمّد حركتي. قبالة صورة أمي، التي أَخفيتُها بسرعة بين قمصاني، وربطة عنق أبي التي سرقتها من خزانته ووضعتها مع أحزمتي في أحد جيوب الحقيبة الضخمة، وجدت نفسي أستعدّ للمغادرة بصمت من دون أن أصرخ، أو حتى أن أقول بهدوء إنني لا أريد البقاء.

هل كان كمال موجوداً أم كنت أتخيّل وجوده؟ لا أستطيع أن أسأل ليلى الآن. اختفت مثلما اختفى هو. لو مات لعرفتُ على الأقلّ من الصحف. شفافيته وغموضه وغيابه أمور تغيظني وتخيفني وتضيّع الحقيقة بعد أن تغبّشها.

سيكون جميلاً أن أتصل به من المطار، وأخبره أنني راحلة، وأن أوان سؤاله عني قد فات. ربما أحسّ بالندم. ربما أوجعته المفاجأة وربما اكتشفت فجأة أنه يحتاج إليّ وأنه لا يستطيع أن يعيش

من دوني. لكنني أكون قد ذهبت ويكون ذهابي قد أوجع أحدهم. على الأقلّ هكذا تتحقّق إحدى أمنياتي. أعجبني مشهد الاتصال به وأنا أنتظر إقلاع الطائرة. سيكون مشهداً جميلاً.

ليلى يجب أن أودّعها شخصياً. سأذهب إليها في السوديكو حيث لن أبكي. لا أعرف هل كنت أستطيع أن أقاوم الكلام معها وأن أنتظر الكتابة كي أقول لها ما أحس بأنني أريد قوله. مع ليلى سأتكلّم وحدي هذه المرة، وإن كنت أنتظر منها أجوبة. فثمة أسئلة عدة ذهبتْ قبل أن تجيبني عنها. وثمة سؤال أساسي لم تجبني عنه. لماذا لم تخبرني؟ وثمة سؤالان آخران، لماذا كتبت أنها ستتصل بي ولم تتصل؟ وأين اختبأتْ طوال أسبوع ظننتُ خلاله أنها في باريس؟ ربما قرّرتْ في اللحظة الأخيرة ألاّ تكشف لي ورقتها الأخيرة. ربما غيّرت الخطة فجأة. ربما تعبت فجأة. ليتها تستطيع أن تجيبني بطريقة ما. ليتني أستطيع أن أحصل منها على إجابة جازمة.

في طريقي إليها سألتها أكثر من مئة سؤال، وكنت كأنني أقول لها: «أرأيتِ، بدلاً من أن تبقيني هنا، سرّعتِ في رحيلي». أردتُ أن أوجع ليلى بهذا الاهتمام. أمام فكرتي هذه ضعفتُ، ورغبتُ بشدة في البكاء، لكنني ظللتُ أقاوم، متأملة واجهات المحال التجارية، معلّقة نظري بالألوان، أرجوها أن تسحبني إليها. في طريقي إلى السوديكو الذي أحبّ أن أقطعه مشياً، أقنعت نفسي بأنني لم أعرف ليلى وما زلت لا أعرفها. وكنت أظنني أستخدمها كي أصير أقوى وكي أؤجّل سفري وكي أملأ حياتي بقصصها. فهل استخدمتْني ليلى؟

أمام البوابة الحديدية الخضراء وقفتُ. أمام البوابة، في مشهد أحسستُ بأنني رأيته من قبل، كدت أن أبكي. احتجت إلى أن تحضنني ليلى أو عامر أو كمال. الحارس لم يطرح عليّ سؤالاً، فتح الباب بصمت ثم صمتت الحياة. مشيت قليلاً، إلى شمالي صعدت ثلاث درجات، فوجدتها. كانت جميلة كما هي دوماً. كانت نائمة بجمال وهيبة. لم أرَ زهوراً كثيرة حولها. لم أرَ أثراً ليوسف، وكان الموت أيضاً بعيداً. أمام الرخام الوردي الأملس، أحسست بأنني ممتلئة بالحياة. ما زالت ليلى قادرة على أن تبعث الحياة فيّ، ما زالت ليلى تحبّ رفقتي برغم الأسئلة التي نَبَتَتْ بيننا، وبرغم المسافات التي لا يعرف كائن بشري أن يقدّرها. بهدوء أحسست بأنني يجب أن ألتفت إلى الوراء، وبهدوء حاولت أن أستوعب المفاجأة. ولم أتحرّك. احتجت إلى أن أجلس أو أن أقع أرضاً، لكنني لم أتحرّك. هو أيضاً بدت المفاجأة على وجهه الذي امتلأ بالكلام ثم ظلّ صامتاً. كمال، ما الذي يفعله هنا؟

تباطأت اللحظات، والمشهد أيضاً أصبح بطيئاً كمشهد سينمائي يُعاد ليُعاد التركيز عليه، كمشهد يعود برهبة إلى الماضي. توقّف المشهد وهو يجمعنا. أردت أن أغمض عينيّ كأنني أستعدّ لعاصفة من الكلمات، كأنني أتمرّن وأتأهّب لتلقّيها بثقلها قبل استيعاب معناها. لكنني ركّزت على أن أفتح عينيّ، على أن أظلّ واعية وأنا أفكر في الجملة التي أستطيع أن أسحبها مني. ثم فكّرت في أن أنتظر كلامه. ليس عليّ أن أشرح وجودي هنا أو دهشتي بوجوده هو هنا. وجوده مع ليلى، لا أفهمه. كان ينظر إليّ وإليها بأسىً. ثم

ينظر إليها كأنه يعرفها قبل أن يعرفني، أو كأنه أضاع بموتها فرصة حصوله على حياة جديدة، حياة حيّة. ثم ابتسم بحنان. لم يسألني عمّا حدث أو عن سبب وجودنا هنا، لم يقل «لماذا نحن هنا؟». ولن يستطيع أن يكذب في هذا المكان، ويقول إنه يزور صديقاً قديماً إنْ سألته: «لماذا أنت هنا؟». كان يتجه نحوها. ضبطتُه ورائي، ضبطتُه مذهولاً ورائي. ولم أسأله. أردت أن أسأله أيضاً هل كنتُ فعلاً أعرف ليلى أم كنتُ فعلاً لا أعرفها؟

«طمئنيني عنك»، قال بحنان.

«أسافر غداً. وأريد أن أودّعك، لكن ليس هنا. ربما في المقهى غداً في الحادية عشرة. تستطيع أن تصحو قبل الحادية عشرة بقليل. وإن لم تستطع، فلا بأس. لكنني حريصة على أن أودّعك وداعاً يليق بمقامك عندي، وأَعِدُ بأنني لن أطرح عليك أية أسئلة، وبأنك غير ملزم بأن تقدّم شروحاً. أفضّل ألاّ أفهم، وافضّل أن أقدّم لنفسي إجابتي المفضّلة عن ضياعي وأسئلتي. ليلى لم أعرفها تماماً، عرفتُ أحد وجوهها. ليلى واسعة، أوسع مني، وكبيرة أكبر من أن أفهمها بوضوح أو أن أصفها بكلمات. ليلى نائمة كمدينة تعبة، لكنها تحسّ بي وتحبّني، وربما فهمتُ لاحقاً سبب تخلّيها عني، ربما حين أفهم سبب تخلّي المدينة عني. حين وعدتني ليلى بأن تصحو المدينة، لم أكن أعرف أنها ستختار أن تنام إلى الأبد. وليس عليّ أن أفهمها وأن أعرفها تماماً. سأكتفي بما عرفتُه كي أذهب وكي أَعدُ نفسي بالعودة.

أراك غداً إذا استطعتَ ألاّ تتأخر وإذا استطعت أن تصحو لوداعي قبل أن أطير».

عدتُ سريعاً إلى غرفتي. عدت راكضة إليها. منذ زمن لم أركض ولم أصارع الهواء، كما ركضت الآن. وفي الغرفة فتحت بابيْ الخزانة العريضة، وجلست بينهما على حافتها السفلى المرتفعة عن الأرض. هكذا فعلت حين كنتُ طفلة في المرات القليلة التي كانت أمي تخرج خلالها، وتتركني وحدي في البيت أو مع شقيقتي. في الخزانة أحسّ بأمان وأشتمّ روائح الملابس التي تمتزج فيها روائح بيتنا وأدوات التنظيف المهووسة أمي بها، ورائحة عطرها الذي لم تغيّره منذ ولدتُ. في خزانتي، ما زلت أشتمّ رائحة أمي، وأحسّ بأنني في أمان كأنني في رحمها، وبأنها فقط أمي، وليست تلك المرأة التي تحاربني وتحاكمني وتسمّيني وتتنبأ بمصيري كل لحظة. ستكون الكتابة خزانتي هناك، وسأحتفظ من أجلها بتأثير صوت كمال فيّ الذي حوّله أسطورة، أسطورتي.

في قلبي طاقة كبيرة وقدرة على الحب تتعبني وتحيّرني. طاقة أقمعها الآن، ولن أقمعها هناك، سأحاول على الأقل أن أكتبها. في الكتابة، سأحتفل بها وبالحرية، التي ما زلت أبحث عنها، وبتخلّصي من الأسرار ومن رغبتي في أن أجد بيروت، التي تزيد حيرتي والتي تجعلني امرأة بأكثر من شخصية، وتجعلني أعرف ما أريد وتدلّني عليه ثم تمنعني من الوصول إليه. تدّعي بيروت الحرية وتسمح لي بأن أتذوّقها ثم تمنعني كل لحظة من أن أكون حرّة.

أشتمّ رائحة أمي في ملابسي، وأخاف أن أنظر الآن إلى وجهها. أمي وجعي القديم الجديد الذي عرفت، في الأعوام الأخيرة خصوصاً، أن أبرّده ثم أتجاهله. ثرتُ عليها من دون أن

تكون ثورتي حقيقية، بل عاقبتُها ولم أثُر عليها. اخترت أن أصمت معظم الأحيان، وأن أتجنّبها أيضاً. فكيف أتجنّبها الآن في لحظات الوداع؟

كمال سيلاقيني غداً في المقهى. وكيف أتصل بعامر الآن؟ تأخّر وقت الخجل والحرص على كرامتي. ولا يهمّني رأيي في نفسي قبل ساعات من غربتي. أتصل به وأطرح عليه فكرة لقائنا الأخير. لن يمانع إذا عرف أنني فعلاً مسافرة. عامر، الذي لا ينام، يردّ عليّ بحذر وبصوت خفيض مدّعياً حزنه على ما حلّ بصداقتنا. قبل أن يتكلّم، وباستعجال شديد، أُخبره عن سفري القريب جداً، وعن رغبتي في أن أودّعه في مقهانا. «في الحادية عشرة، إذا استطعتَ أن تصحو باكراً. يجب أن أبكر في الذهاب إلى المطار، تعرف».

لم أسمح لعامر بأن يكون لطيفاً. حاربتُ لطفه باستعجالي، وبدا كلامي «رسمياً» نوعاً ما. وفرحت لحزنه أو لادّعائه الحزن، لا بد أنه فعلاً حزين ولو قليلاً. أستطيع أن أفرح بقليل من الحزن لرحيلي.

حماستي للقاء الغد تفوق خوفي من سفري. أتمسّك بليلي البيروتي الأخير، وليلى تتمسّك بي بدلاً من المدينة.

وجع القلق لا يطاق ويصيب المعدة دوماً. في اليوم الأخير، بطني كبُر. وأحسست بأنني أحنّ إلى أن ألد مرة واحدة، وأن أعيد الحياة إلى حياتي، وأن أصحو من كابوس الغربة. خلال نومي ظننتُني حاملاً وحين صحوتُ تذكّرت أنني كنت حاملاً في المنام،

وتخيّلت نفسي حاملاً. كبّلني الإحساس بأنني حامل ولم يحرّرني. أحسست بأحشائي تحترق وكبر بطني حتى كاد أن ينفجر. أدخلتُ صورة طفل يشبهني إليّ، طفل غير حرّ، مدوّر الوجه، سعيد بالحياة وبي. طفل أخفيته داخلي محاولة أيضاً أن أخفي الإحساس به في داخلي. لكنني أحسستُ بأنني سألد، وبأن ثمة ما سينزل أو سيطلع منّي. كان لا بد في تلك اللحظة من أن أبدأ الكتابة بدلاً من أن أعيد كتابة السيناريو نفسه: أحمل ثم ألد ثم أموت. أفلا يشبه هذا السيناريو كل السيناريوهات؟

أعرف أنني أنانية، وأعترف بأنانيتي، إلا أنني أصرّ على أنني لا أمارسها في هذا الإطار، لكنني لا أستطيع أن أصرّ على أنني غير مكبّلة بفكرة الطفل. تكبّلني فكرة الطفل الذي لم أستطع الحصول عليه قبل أن يكبّلني الطفل نفسه إذا صار حقيقة، إذا حصلتُ عليه. لا أمارس أنانيتي. لكنني أحاول أن أتحرّر من كل فكرة أستطيع التحرّر منها.

استرحتُ. الطفل لا أريده، على الأقل الآن. سأعترف لأمي بأنني وصلت إلى هذا الاستنتاج. سأُشركها للمرة الأولى في حواراتي الداخلية مع نفسي كي أواجهها باستنتاجي وأفرح به وبمواجهتها. فليس عدم الإنجاب حقيقة مفروضة عليّ، بل حقيقة اخترتها. لكنّ أمي ستنتصر طبعاً، أعرف أنها ستنتصر عليّ إذا واجهتها. ستقول إنني سأندم بعد أن يكون الوقت قد تأخّر، وتقول إنها تفهم الحياة وتفهمني من غرفة الجلوس، وستشكوني لي. وهنا، أضيع، أكره أن تشكوني لي، أضيع بين الشفقة عليها وعلى نفسي وبين الكذب عليها

وعلى نفسي، ثم بين الضحك عليها وعلى نفسي. ربما كانت أمي تتهيّأ لفراقي منذ خمسة عشرَ عاماً أو أكثر. فلم تكن تتوقع أن أبقى عندها طوال هذه الأعوام. ولو جررتُ الآن شاباً أو عجوزاً، عربياً أو أجنبياً، من يده إلى غرفة الجلوس في بيتنا، لقبِلتْ به وعامَلتْه معاملة المنقذ. خصوصاً الآن، فأمي تعرف أن «أقرباءنا وأهلنا وناسنا»، كما تسمّيهم هي، الذين تعذبتُ قبل أن أتعلّم ألاّ أبالي بهم، الذين هم أيضاً أهلي وأقربائي وناسي، لن يسامحوني، وإنْ سافرت. لن يسامحوني، خصوصاً أنني أسافر. وسأظلّ منبوذة لأنني أسافر وحدي، أسافر من دون عائلة. يفضّلون أن أقتلع رجلاً من الطريق وأصطحبه معي، أهدّده إن لم يقبل وأغريه بالغربة، وبالمال الذي نستطيع أن ندّخره هناك، وبالكهرباء أو اللون الأخضر الذي قلّما رأيناه في المدينة، أو بالمأكولات البحرية.

وأمي لا تنسى هؤلاء برغم عزلتها، ولا أفهم كيف تراهم وتعرف أخبارهم وتفاصيل حياتهم من دون أن تخرج من البيت. أحسّ بأنها تعيش من أجلهم، وبأنها من أجلهم تحاربني وإن بصمت. وكنت أستغرب نظراتها بعد عودتي من بيت كمال أو من المقهى. تبتسم وتضع رجلها اليسرى فوق رجلها اليمنى وتحرّك قدمها اليسرى إلى الأمام ثم إلى الوراء، تحرّكها ألف مرة حتى تتعب. أحسّ بأنها تتوق إلى أن تعيش حياتي، أن تكونني، وإلى أن تبحث مثلي عن الإحساس بالحرية وعن حياة وإلى أن تسافر بدلاً مني. وفي أقلّ من ثانية ينقبض وجهها وتتسع عيناها وتعود إلى نفسها وإلى شاشة التلفزيون، وصور بيروت القديمة في ألبوم أبي

الأسود المتهرّئ. أمي تريدني أن أعيش قصّة الحياة نفسها، أن يكبر بطني وأنجب وأموت.

لم أواجهها. أفضّل أن أتبع طريقتي معها وألاّ أنظر إلى عينيها طويلاً وربما ألا أنظر إليهما أبداً. أحني رأسي وأضمّها. حنيت رأسي وضممتها وقلتُ: «حين أعود بعد ساعة ودّعيني، لن أتأخر». وركضت إلى المقهى كي أصل قبل عامر وكمال. أردت أن أفاجئهما وأن أستقبل كلاً منهما بابتسامة المذنب الذي يبحث عن شرح موقفه. وقبل أن أصل إلى باب المقهى الرئيسي، رأيت كمال. ظننته لن يأتي. لم أتحرّك. ووقفت بعيداً بالقرب من الباب الخلفي الزجاجي لأراقب المشهد في المقهى. أردته أن يليق بوداعي ولم أرد الدخول. أَبكَر كمال في وصوله وكنت أظنّه لن يأتي. وربما أتى لإحساسه بالذنب أو ليشرح لي تفاصيل زيارته لليلى، أو ربما اكتشف فعلاً أنه لا يستطيع أن يعيش من دوني. ابتسمتُ. من بعيد ابتسمت ولم أدخل. راقبته خلال دقائق. غطّى ساعته بكفّه كأنه يرفض أن ينظر إليها وأن يواجه الوقت. لا يريد كمال أن يفكّر في أنه ينتظرني، وهو يعرف أن انتظاري لا يمكن أن يطول إذا كنت فعلاً سأسافر، في الموعد نفسه على الأقل. بدا كمال قلقاً. وقلقه يفرحني. ظللتُ بعيدة. ومن هناك، من مخبإي المكشوف، رأيت عامر يدخل المقهى. جلس ونادى النادل مباشرة «فنجان قهوة من دون سكر»، قلتُ للنادل في رأسي. ولم أدخل. رأيت عامر يحدّق إلى زوايا المقهى كلّها ويبحث عن وجهي خلف المجلات والكتب كأنه لا يعرفني، كأنه موعدنا الأول وكأنه ينتظر

أن يراني للمرة الأولى الآن، عامر لا يعرف الانتظار. يستطيع أن يجلس وحده في المقهى ساعات طويلة، لكنه لا يعرف أن ينتظر. ولعلّه قرر أن يضحّي لأجل يومي الأخير، ولعلّه ضغط على أعصابه كي لا ينفجر بي إذا رآني. عامر أيضاً ظننته لن يأتي. ثم نظرت إلى كمال بوقاره الذي حمله معه إلى المقهى مفضّلاً انتظار وصولي قبل أن يطلب فنجان القهوة. وبكيت قليلاً. منذ ماتت ليلى لم أبك. بكيت بصمت كأنني أصلّي، ولم أبك على ليلى. وظللت بعيدة عنهما. ابتسمت أيضاً وأنا أراقبهما. إنْ دخلت، فسأضطر إلى أن أحكي لهما حكايتي من أولها. أعرف ذلك. وسيكون عليّ أولاً أن أعرّف أحدهما إلى الآخر وإلى دور كل منهما في حكايتي، وأن أشرح لهما أنني بوداعهما أودّع بيروت أيضاً، وأشكر لهما قدرتهما على الحب والكلام. فضّلت أن أودعهما من الخارج، ولم أحتج إلى أن أعرف منهما أية تفاصيل جديدة وأية أجوبة عن أسئلة بات وجودها أساسياً في حياتي التي سأبدأها بعد ساعتين.

وانصرفتُ قبل أن ينصرفا. ربما تأمّل عامر ربطة عنق كمال ساخراً من ألوانها الزاهية ومن قميصه المكوي بعناية، وربما اصطدم به عند خروجه من المقهى شاتماً متمتماً كلمات طنّت بسببها أذني.

بعد المقهى، انتظرتني الحقيبة الضخمة في مدخل البيت. وقفتْ أمي في الفسحة الضيّقة بين غرفتي ومدخل البيت ولم تتحرك. وأبي الهادئ، كعادته، وقف بهدوء كتلميذ خائف من عقاب ينتظره. ووقفتُ بينهما. لم تبكِ أمي ولم أبكِ. نجحتُ في ألاّ أنظر إلى

عينيها. ضممتُها بسرعة وضممتُه. اشتممتهما بدلاً من أن أقبّلهما، وخبأت رائحتيهما فيّ وخرجت.

ربحت التحدي، وصلت إلى الطائرة ولم أكن قد بكيت ليلى. لم أبك. ثم سمعتهم في الطائرة، هم أنفسهم الذين يقرفون مثلي في بيروت، والفرق بيني وبينهم هو أن قرفي يؤثر فيّ وفي حياتي ويتسبّب بتعاستي، أما هم، فيقرفون بفرح، ويتمرنون على القرف ويستمتعون به. في الطائرة كانوا يضحكون بالفرنسية ويختبئون في سترات جلدية إيطالية، وفي غيمة من العطور الباريسية. قال الأصلع بينهم: «أفتح صباح كل يوم صفحة الوفيات في الجريدة، وأقرأ «تُوفي في الاغتراب»، أقرأها بالفرنسية والإنكليزية وأحياناً بالعربية، أقرأ عن فلان بن فلان وزوج فلانة... وكلّهم يموتون خارج البلد». كأنني سمعتهم يضحكون بعدما أنهى تصريحه، وكأنه أخبرهم نكتة فهموها ولم أفهمها أو أكمل جزءاً من حديث كانوا قد بدأوه من قبل. حقدتُ عليهم، وابتسمت لهم. أردتُ أن أبدأ رحلتي بالمشاركة، خصوصاً أنهم لبنانيون وأنا في طريقي إلى الغربة. هذه المرة انتصر منطق أمي، بدأ تأثيرها فيّ يتطوّر منذ تهيّأتُ لمغادرة الأراضي اللبنانية. استمعت إليهم بشغف كي لا أواجه الحقيقة، والحقيقة هي أنني سافرت فعلاً. كانوا يهزأون ببيروت، يسخرون منها ومما أصبحته، من العتمة التي تلفّها في النهار، والتي تتواصل ليلاً. كانوا يضحكون وكنت أضحك معهم وأقاوم رغبتي في أن أبكي. أردتهم أن يقبلوني، وأن يبتسموا لي. أحسست بأنني أقلّد ليلى التي كانت تبحث دوماً عن أن تنسجم مع يوسف وأصدقائه،

كي تضلّل الوحدة، وربما كي تضلّل نفسها وكي تنتمي إلى طبقة الأحياء. في حفلة السفر أيضاً كانت الأضواء كاشفة. الأسنان بيض والشعر مصفّف للمناسبة، والأيدي ناعمة جداً. . . ، «الصحراء تنعّم الأيدي، أتعلمين»، قالت لي زوجة الأصلع. «لن يكون عليك أن تغسلي أو تطبخي أو تجففي ملابسك، ستُخدمين وستتغيّر علاقتك بوسائل الإعلام، ستحبينها. لن يذكّرك الراديو بالحرب وبما تتذكّرينه من أيام القصف، ولن يجثم التلفزيون على صدرك بعد ساعات من الجلوس قبالته كي يمضي الوقت بانتظار اتصال من هذه الشركة أو تلك. سترفعين قدميك في وجهه وتطلبين منه استراحة. وستأكلين كثيراً، إذا أردتِ الانفلات من سجن جسمك الذي أردتِه هناك نحيلاً دوماً، ولن تمشي لأنك لن تستطيعي المشي على الأرصفة والطرق»، أغمضتُ عيني وطرتُ، رأيت الأزقّة والأرصفة والمباني الرمادية الحزينة. أغمضت عينيّ ورأيت السماء مفرطة في زرقتها، طرت خفيفة. «فعلتُها» وطرت.

متى نعود إن ذهبنا؟ كان عليّ قبل الرحيل أن أفكّر في العودة، لكنني نسيت.

صدره الذي يتحرّك حين يضحك يغريني بالنوم عليه. أتخيّله يستمتع بسيجارته وينظر إلى ساعته عشرين مرة خلال اتصالي به. كمال عرّفتُه إلى ليلى كي أؤجّل سفري أيضاً، كي أحبُك لأيامي قصّة أبطالها، كما أحبّهم، يحبّون الحياة. كمال أيضاً، مثل ليلى، يعرف الموت. يصل كلّ مرّة إلى عتبته ويعود.


ISBN 1-85516-752-2
9 781855 167520

